شوك الخوارج

وإذا كان المتأسلمون عبر التاريخ ومنهم الخوارج يلتوون بالنص ليزعموا تفسيراً له يحقق هدفهم فإن أمامنا نموذجاً واضحاً بل ومثيراً للسخرية، لأننا لسنا فى مجال السخرية فإننا نكتفى بأن نصفه بأنه نموذج واضح وفاضح للفارق بين الإسلام الحقيقى الذى بعث به رسول الله وبين المتأسلم الذى يستهدف تحقيق مصلحة ما، أو الذى يتمسك به الذين وصفهم القرآن الكريم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ونقرأ لأبن حزم فى كتابه "الفصل": "وكان إن توجه الصحابى الجليل عبد الله بن خباب أحد ولاة على أبن أبى طالب فى طريق يتحكم فيه الخوارج مصطحباً معه زوجته وكانت فى أشهر حملها الأخيرة. فلما عرف أبن خباب بوجود الخوارج فى طريقه علق مصحفاً فى رقبته فأوقفوه وامتحنوه وجرى الحوار التالى:

- أحد الخوارج: ما رأيك فى أبى بكر ؟

أبن خباب: خيراً.

- أحد الخوارج: وعمر ؟

أبن خباب: خيراً.

- أحد الخوارج: وفى عثمان ؟

أبن خباب: خيراً.

أحد الخوارج: وما رأيك فى على ؟

أبن خباب: على بن أبى طالب أعلم منى ومنكم بالقرآن.

فصاحوا فيه قائلين: الذى فى عنقك يأمرنا بقتلك. وأخذوه إلى مجرى نهر وذبحوه وذبحوا زوجته وقتلوا الجنين فى بطنها فغضب على ابن ابى طالب غضباً شديداً، وهاجمهم بجيش كان قد أعده لفتح الشام وأوقع بهم فى مكان يدعى النهروان وهزمهم هزيمة منكرة. لكن حقيقة التأسلم تتضح لنا عندما نواصل القراءة فى كتاب الفصل لأبن حزم "ذلك أنهم وبعد أن قتلوا عبد الله بن خباب وزوجته ذهبوا إلى ضيعة صغيرة كانت بجوارهم وكان يمتلكها أحد النصارى طالبين أن يبيعهم تمراً. فقال الرجل وقد رأى بطشهم "خذوه بلا ثمن" فرفضوا قائلين "إن الله أوصانا بكم خيراً، فقال النصرانى "عجباً أتقتلون أبن خباب وتقولون أنكم تعملون بما أوصى أليكم"، ثم نواصل لنقرأ للمبرد فى كتابه الكامل فى لغة العرب لنكتشف ومرة أخرى حقيقة الفارق بين الإسلام والتأسلم ومدى عدم الإتساق فى فكر المتأسلمين ونقرأ "أقبل واصل بن عطاء فى

رفقة له فأحسوا بوجود الخوارج واستشعر رفقته العطب فقال واصل "إعتزلوا ودعونى وإياهم" فتصدى له الخوارج سائلين: ما أنت وأصحابك ؟ فأجابهم مشركون مستجيرون. فطلبوا منه الرجوع فقال لهم واصل ألم تسمعوا بالآية الكريمة: وإن أحد من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله"، فأجلسوهم وأسمعوهم آيات من القرآن الكريم وهم يهزون رؤوسهم منصتين. ثم قال الخوارج والآن إنصرفوا. فقال إبن عطاء ألا تكملون الآية فهى تقول "فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه" فأبلغونا مأمناً. فقال الخوارج: لكم هذا وساروا بهم فى جمعهم حتى بلغوا المأمن" [المبرد - الكامل فى لغة العرب - الجزء الثانى - صـ٣٢٥].

وهكذا نرى الفارق فى المعاملة، فالصحابى الذى علق المصحف فى عنقه قتلوه والذى قال أنه مشرك أبلغوه مأمنه.

وثمة رواية أخرى، وهى أن جمعاً من أهل الكوفة أتوا إلى الحج وقابلوا عبد الله بن عمر فسألوه "هل يجوز قتل البقلة [حشرة الفراش] فى الأشهر الحرم ؟ فسألهم من أى البلاد أنتم قالوا من الكوفة فصاح فيهم" لعنكم الله أتقتلون الحسين وتسألون عن حرمة قتل البقلة؟"

وهكذا إنطلق الخوارج كعادة كل المتأسلمين من تطرف إلى مزيد من التطرف وفى كل مرحلة يزدادون تصوراً بل ويقيناً أنهم يحسنون صنعاً. ويقول أبو الحسن الأشعرى "ومن أكثر أمراء الخوارج تطرفاً نافع بن الأزرق أمير الفرقة المسماة بالأزارقة وقد

أحدث إكفار من لم يهاجر إليه" [أبو الحسن الأشعرى - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين -صـ٥٨] ويقول د. عامر النجار "والأزارقة من غلاة الخوارج وعتاتهم وقد قالوا بثمان بدع منها: تكفير على أبن أبى طالب، وتكفير معظم الصحابة وتكفير القاعدين عن الهجرة إليهم [أى الانضمام إليهم] وإباحة قتل أطفال المشركين وهم مخلدون فى النار مع آبائهم، وزعموا أن من أقام فى دار الكفر فهو كافر لا يسعه إلا الخروج وقال زعيمهم نافع بن الأزرق: أننا اليوم بمنزلة المهاجرين ولا يسع أحد من المسلمين التخلف عنا" [د. عامر النجار - الخوارج - صـ٤١٥].

وإذ نتأمل هذا الذى قاله د. النجار نكتشف أن منها ما تلبسه بعض متأسلمى زماننا مثل شكرى مصطفى الذى أوجب الهجرة، وسيد قطب الذى قضى بأن من لم ينضم إلى جماعته ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يحتاجون لإشهار إسلامهم من جديد فمن نطق بالشهادتين ولم ينقد لها [أى لم يلتزم بها] هو كافر قطعاً.. [راجع سيد قطب: معالم فى الطريق].

.. وهكذا نكتشف أن المسلمين يمضون فى طريقين، طريق الإسلام الصحيح يتوارثونه ويلتزمون به وطريق آخر طريق التأسلم يتوارثونه فيكونون ممن وصفهم القرآن "بالأخسرين أعمالاً".

ويمضى التأسلم ليقتاد بعض المسلمين إلى مزيد من التشدد ومزيد من التفسير الخاطئ لحقيقة الشريعة. وكان أكثر ما أوقعهم فى الخطأ بل والخطيئة التفسير النصى للآيات القرآنية ففهموا بعض

الآيات فهماً منحرفاً ومارسوا هذا الفهم المنحرف والغير عقلانى ممارسة عملية فالآية الكريمة "وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً" [نوح -٢٦-٢٧] فاستباحوا قتل الأطفال، واعتمدوا على قصة الخضر عليه السلام وقتله الطفل فى سورة الكهف. وقد مضى أبن الأزرق فأمر أتباعه بأنه "لا يجوز لهم الاستجابة للصلاة إذا دعاهم إليها غيرهم من المسلمين، وإن لا يأكلوا من ذبائحهم ولا يتزوجوا منهم ولا يتوارثوا مع غيرهم" [النجار - المرجع السابق - صـ١٤٠] ولأن التأسلم يقتاد صاحبه إلى مزيد من التأسلم فقد أتت فرقة منهم إسمها "الثعالبة" حرمت قول المسلم "إن شاء الله" لأن فى ذلك تشكيك فى الاعتقاد بقدرته سبحانه وتعالى، وفرقة "العاذرية" التى استحلت سفك دماء وأموال أهل الذمة والعهد" [د. عبد الله حمادى - التكفير والهجرة فى فكر الخوارج - دراسة فى مجلة النهج - عدد صيف ٢٠٠١]. وهو ذات ما فعله ويفعله بعض متأسلمى أيامنا غير السعيدة.

وينتهى الأمر بالخوارج أن أوفدوا أربعة من رجالهم لاغتيال على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص - وأبو موسى الاشعرى. وهم المتصارعون على الخلافة والحكمان الذين قاما بالتحكيم وفشل ثلاثة ونجح واحد منهم هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى فى اغتيال على. ويبتهج الخوارج بمقتل على وينشد شاعرهم عمران بن حطان وهو أحد غلاة أمراء الخوارج قصيدة طويلة فى مدح

المرادى أوردنا بعضاً منها فى المقدمة وأوردنا أيضا رد احد اتباع على بن أبى طالب وهو بكر ابن حماد التهرتى عليه ولعل المقارنة بين هذين المقطعين من الشعر توضح بجلاء الفارق بين الإسلام والتأسم.

ولكن القصة لم تنته. فعلى رحل بتعاليمه السمحة وقرر أنصاره الانتقام من قاتله ويروى أبن الجوزى كيف تم القصاص فقال "قطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم، فكحل عينيه بمسمار محمى فلم يجزع وجعل يقرأ"إقرأ بسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق حتى ختمها وإن عينيه تسيلان فعولج على قطع لسانه فجزع فيقيل له لماذا جزعت ولم تجزع من قبل فقال أكره أن أكون فى الدنيا مواتاً ولا أذكر الله" [ابن الجوزى - تلبيس إبليس -صـ٩٥].

وهكذا فإن القاتل وبقدر ما أحتمل متصوراً أنه فى سبيله للشهادة وأنه قام بواجب شرعى إلا أنه تخيل أن ذكر الله يجب أن يكون بالنطق، وليس بالإيمان القلبى.

.. ونمضى مع التأسلم لنطالع كيف يمضى بأصحابه.

ولابد أن ندرك أن المتأسلم هو إنسان تلبسته فكرة خاطئة صورت له أنه كلما تشدد وتطرف كان الأقرب إلى الله وأنه بمزيد من التأسلم سيمضى حتماً إلى الجنة. ومن ثم فلا سبيل إلا تبيان صحيح الإسلام له. وإلا فهو ماض الى المزيد والمزيد من التطرف والرفض للآخر والاستعلاء على الجميع والإفراط فى العداء لهم.

يقول ابن الجوزى أن قادة الخوارج كانوا يملأونهم حماساً أثناء القتال ضد غيرهم من المسلمين فيصيحون بهم "تهيأ للقاء الرب،

الرواح الرواح إلى الجنة" [صـ٩٤]. ويحدثنا عبد الله بن عباس وقد زارهم فى حروراء قرب الكوفة مبعوثاً من على بن أبى طالب لمجادلتهم وهدايتهم إلى صحيح الإسلام فيقول "فدخلت على قوم لم أر أشد منهم اجتهاداً، وجباههم قرحة من السجود، وأياديهم كأنها ثفن الإبل [أى أخفاف الجمال] وعليهم قمصان طاهرة، مشمرين أياديهم، ووجوههم مسهمة من كثرة السهر" [صـ٩١]. ويقول جندب المرادى "لما توجهنا إلى الخوارج ونحن مع على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وإذ وصلنا إلى معسكرهم فإذا لهم دوى كدوى النحل من قراءة القرآن" [المرجع السابق - صـ٩٤].

لكن الشهرستانى لا يصدق فيهم التجرد من المصلحة ويؤكد أنهم إنما كانوا يطمعون فى السلطة والإمامة ويقول "ولقد كان خلاف الخوارج فى أصله خلافاً على الإمامةوالسلطة، وأعظم خلاف بين الأمة الإسلامية هو الخلاف على الإمامة فى كل زمان" [أبو الفتح الشهرستانى - الملل والنحل - صـ٢٢].

ولعل فضيلة الشيخ أبو زهرة قد منحنا المزيد من القدرة على فهم هذا التأسلم إذ قال فى كتابة "تاريخ الجدل" "هم كاليعاقبة فى الثورة الفرنسية حيث نادوا بالحرية والإخاء والمساواة وبإسم ذلك كله ارتكبوا أفظع الشنائع فى حق الأبرياء والأعداء. فالخوارج استولوا على عقول الناس بخطاب مشحون بعبارات الإيمان والعدالة والحاكمية لله، والبراءة من الظلم والظالمين وباسمها جميعاً أباحوا دماء المسلمين من الأبرياء ومن مخالفيهم فى الرأى" وهكذا يقتادنا

الشيخ أبو زهرة وببصيرة نافذة استطاعت أن تطل بنا الى أعمق أعماق الفكر المتأسلم وكأنه يتحدث تماماً عن متأسلمى زماننا. وإذا تابعنا أدبيات جماعة الأخوان فإننا نقرأ ما يوقظ فى نفوس الإتباع هذه النزعة المتأسلمة والتى تصب عنفها وبطشها على مخالفيهم فى الرأى. ونطالع فى مقال إفتتاحى للعدد الأول من مجلة "النذير" لسان حال جماعة الإخوان فى منتصف ثلاثينيات القرن الماضى دعوة وجهها الشيخ عبد الرحمن الساعاتى وهو والد الأستاذ حسن البنا المرشد الأول والمؤسس لجماعة الإخوان بما يعطى لهذه الدعوة مكانة ومهابة لا تضاهيها مهابة فى نظر أعضاء الجماعة. ويقول الشيخ الساعاتى "استعدوا يا جنود وليأخذ كل منكم أهبته، ويعد سلاحه، ولا يلتفت منكم أحد، أمضوا الى حيث تأمرون. وخذوا هذه الأمة برفق فما أحوجها إلى العناية والتدليل، وصفوا لها الدواء فكم على ضفاف النيل من قلب يعانى وجسم عليل، وأعكفوا على إعداده فى صيدليتكم، ولتقم على أعطائه فرقة الإنقاذ منكم، فإذا الأمة أبت فأوثقوا يديها بالقيود وأثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة، وإن وجدتم فى جسمها عضواً خبيثاً فاقطعوه أو سرطاناً خطيراً فأزيلوه. استعدوا يا جنود فكثير من أبناء هذا الشعب فى آذانهم وقر وفى عيونهم عمى" [النذير - العدد الأول - أول محرم - ١٣٥٧هـ - الافتتاحية] ولست أريد لهذا المقال أن يمر دون تحليل فكل حرف فيه توجيه ومعنى مقصود وهو نموذج نموذجى لما تمارسه جماعة الإخوان حتى

اليوم بما يؤكد أنها لا تتغير.. وأنها صارمة صادمة كما يفعلون الآن، عنيفة عنفهم. فالحديث موجه بصيغة الأمر. لمن ؟ "للجنود" وليعد كل منهم "سلاحه" وليس من حق أحد منهم أن "يلتفت" وإنما يجب أن يمضى الجميع.. "إلى حيث يأمرون".. "ثم صفوا للأمة الدواء" وأعكفوا على إعداده فى صيدليتكم.. ولتقم على إعطائه فرقة الإنقاذ من الجماعة.. وإذا أبت الأمة أن تتقبل هذا الدواء فمن الضرورى أن يوثقوا يديها بالقيود وأن يثقلوا ظهرها بالحديد.. ويتم إكراهها على أن تتجرع الدواء الاخوانى بالقوة، وفوق ذلك كله إذا وجد الإخوان فى هذه الأمة عضواً خبيثاً يقطعوه أو سرطاناً خطيراً يزيلوه.. ذلك أن الشعب فيه الكثير من الطرشان والعميان.. هذه الوثيقة هى بالضبط التعاليم الاخوانية المقررة والجميع يأمرون بالإلتزام بهاوتنفيذها. كان ذلك فى عام ١٩٣٦ .. وكان طوال تاريخ الإخوان، وأستمر حتى الآن ولم يزل يطبق حتى الآن. وكان الابن الأستاذ حسن البنا على ذات الدرب فيكتب "وما كانت القوةإلا كالدواء المر الذى تحمل عليه الإنسانية العابثة المتهالكة تحمل عليه حملاً ليرد جماحها ويكسر جبروتها وطغيانها، وهكذا كانت نظرية السيف فى الإسلام. ولم يكن السيف فى يد المسلم إلا كالمشرط فى يد الجراح لحسم الداء الاجتماعى" [النذير - رمضان ١٣٥٧هـ - حسن البنا] ثم تتمادى الادعاءات ويتمادى التحول من القول المتأسلم إلى الفعل المتأسلم فنقرأ لقائد إخوانى هو الأستاذ محمود الصباغ وكان أحد قادة

الجهاز السرى للإخوان. "إن أعضاء الجهاز يمتلكون ودون إذن من أحد الحق فى إغتيال من يشاءون من خصومهم السياسيين فكلهم قارئ لسنة رسول الله فى إباحة اغتيال أعداء الله" [محمود الصباغ – حقيقة التنظيم الخاص ودورة فى جماعة الإخوان – صـ١٣٢]..

ألا أنهم يفترون على الله ورسوله كذباً.

.. ونمضى نحو مزيد من الدراسة.

المعتزلة - الزنج - الشيعة
التلاعب بين القول والفعل

والمعتزلة هى أكثر الفرق الإسلامية حديثاً عن الحرية والعقل والعدل لكنهم وما أن كان لهم وجهة نظر تقول بخلق القرآن حتى تحولوا بعد تقبل الخليفة المأمون لفكرتهم الى دعاة إفتراس وحشى لمن لم يتقبل رأيهم. قالوا فى البداية أجمل الكلمات بما دفع الكثيرين طوال أزمنة عديدة وحتى اليوم إلى إمتداح أفكارهم بإعتبارها نموذجاً لفكر اسلامى متحرر ومستنير، لكنهم رسبوا فى أول امتحان عملى. فهم لم يكتفوا بالهجوم على مخاليفهم وإنما قرروا استنطاق الصامتين فامتحنوا العلماء والفقهاء وكل من لم يجب موافقا على خلق القرآن يعاقب.. يطرد، ثم يسجن، ثم يعذب، ثم يقتل. وهكذا تحول الرأى فى الدين وهو رأى إنسانى يقبل الصواب والخطأ إلى مقدس يتعين القبول به وإلا فالتكفير

والسجن والقتل. وهنا وعلى يدى المعتزلة حدث تطور خطير جداً على الذهن والضمير والأخلاقيات الإسلامية والعربية. فتحول المثقف إلى ببغاء هادئ وشرس، هادئ إذ يردد أفكاراً ومقولات ليبرالية وتقدمية بالنسبة للزمان والمكان، وشرس عندما يطيح بسيفه رأس المخالف. وهكذا خلق المعتزلة ثغرة فى فكر المثقف الاسلامى ومن ثم العربى وهى ثغرة تعطيه القدرة على ترديد كلمات ذات مسحة متسامحة وآراء تتبدى متسعة الأفق، وتعطيه فى نفس الوقت القدرة على الالتواء وبذات الكلمات إلى مساحة النفاق أوالعنف. وعبر هذا التراث المعتزلى وجدنا إسلاماً يتألق كلمات ثم ما يلبث أن يتحول إلى تأسلم عبر فكرة "خلق القرآن" وتكفير كل من لم يقل بها وما يستتبعه التكفير من أفعال وحشية. فترسخ وعلى مدى الزمان نموذج المثقف العربى - الاسلامى الأكثر شيوعاً والمتمثل فى القول الممزوج بالخوف المنافق أو الصمت برجاء السلامة، وإتقان لنفاق يتمدد عبر كل كلمة، وكل تصرف. ورأينا أجيالاً متعاقبة من مثقفين يفكرون كما يشاءون لذاتهم وبذاتهم ويهمسون بآرائهم لخاصتهم معلنين رفضهم للحاكم وظلمه، فما أن يفتحوا فمهم علناً أو يكتبوا حرفاً حتى يتحولون الى أكياس متخمة بنفاق يكسبون به رضاء الحكام ويفتحون به سبل الترقى والصعود، أو فى أسوأ الأحوال البقاء فى أمان. ومع عسف وشراسة الخليفة المأمون ومحنة امتحان العلماء فى مسألة "خلق القرآن". لم يبق أمام العالم أو الفقيه أو المثقف سوى أحد أمرين، إما مخالفة صحيح

الإسلام ومخالفة ضميره أو السجن والتعذيب والقتل. وهكذا وبنسب متفاوتة تختلف زمانا ومكانا ظل المثقف العربى - الاسلامى محاولاً عبثاً أن يتعايش مع يقينه بصحيح الإسلام، أو صحيح الموقف السياسى وأيضاً وفى نفس الوقت مع ما يعتقد يقيناً أنه تأسلم أو موقف سياسى خاطئ. ويركب أرجوحة مخجلة لا تثمر ثقافة حقه ولا إبداعات مقبوله.

ولكن.. ما هى قصة المعتزلة ؟ ولماذا أتاهم هذا الاسم ؟. مؤسس هذه الجماعة هو واصل بن عطاء [٨٠- ١٣١هـ] وأسمه بالكامل أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى المعروف بالغزال. وكان أحد الأئمة المشهورين بالبلاغة والقدرة على الحوار وإتقان علم الكلام. وكان يلثغ بحرف الراء. ويعلق المبرد على ذلك "كان ابن عطاء أحد الأعاجيب ذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة فى الراء فكان يخلص كلامه من الراء دون أن يفطن لذلك أحد، لاقتداره على الكلام وسهولة تدفق ألفاظه" [المبرد - الكامل - المرجع السابق] ويحكى السمعانى قصته قائلاً "وقد اعتاد واصل الجلوس فى دروس أبو الحسن البصرى فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبى الكبائر بينما قال الآخرون بأنهم مؤمنون وأن فسقوا بالكبائر، نادى واصل بفكرة ثالثة قال فيها أن مرتكب الكبائر لا مؤمن ولا كافر، فغضب منه البصرى وعنفه فترك مجلسه واعتزله هو وعدد من مؤيديه ومنهم عمرو بن عبيد، وقيل أن أبو الحسن البصرى قال ساعتها "اعتزلنا واصل"فأسمى ومن معه "المعتزلون" ويمضى

السمعانى قائلاً "ولواصل بن عطاء تصانيف عدة منها "كتاب أصناف المرجئة" وكتاب "التوبة" وكتاب "المنزلة بين المنزلتين" وعديداً من الكتب منها "معانى القرآن" و "السبيل إلى معرفة الحق" و "طبقات أهل العلم والجهل" [السمعانى - كتاب الأنساب] بينما يروى البعض أنهم أسموا بالمعتزلة لأنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة ومقاطعته. أما القاضى عبد الجبار الهمزانى وهو المؤرخ المعتمد للمعتزلة فقد نفى وبشدة أن المعتزلة مذهب جديد أو فكرة طارئة أو طائفة أو أمراً مستحدثاً.. وإنما هم استمرار لما كان عليه الرسول الكريم وصحابته، وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم اعتزلوا الشر امتثالاً لقوله تعالى "واعتزلكم وما تدعون" ولقول الرسول [صلعم] من أعتزل الشر سقط فى الخير. وثمة روايات عديدة لمصدر هذه التسمية. فالشهر ستانى يقول: دخل رجل على أبو الحسن البصرى فقال "ظهر أناس فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر الإيمان فيقولون لا يضر مع الإيمان معصية.. فكيف تقول فى ذلك ؟ فإنبرى إبن عطاء قبل أن ينطق أستاذه "أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن أيماناً كاملاً ولا كافر كفراً مطلقاً بل هو فى منزلة بين المنزلتين، فغضب منه أستاذه، فأعتزلة" [أبو الفتح الشهر ستانى - الملل والنحل]. ورواية أخرى يرويها أبو الحسن الملطى فيقول "أنهم سموا أنفسهم كذلك لما بايع الحسن معاوية وسلم له أمر الخلافة، فاعتزلوا الحسن ومعاوية معا وجميع من وافقهما

ولزموا مساكنهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بالمعتزلة" [أبو الحسن الملطى - التنبيه والرد على أهل البدع].

.. ولقد تعمدت أن أورد تعدد الروايات فى شأن تسمية فرقة من الفرق لعل هذا التعدد يمنحنا القدرة على عدم الإغراق فى التسليم بكل ما يأتى فى كتب التراث. فالروايات عديدة حول أكثر الموضوعات بما يجعل من أعمال العقل فيها والاختيار فيها بينها أمراً حتمياً.

.. ولكن ما هو الفكر المعتزلى ؟

يؤكد مؤرخون عدة أن المفكر والصانع الحقيقى للفكر المعتزلى والذى دافع عنه قولاً وكتابة هو شيخ المعتزلة أبو الهذيل العلاف، وهو أحد مؤسسى علم "الجدل" واسمى أبو المعتزلة وأستاذهم. درس بالبصرة وأخذ الالتزام عن أحد تلاميذ ابن عطاء ثم ما لبث أن تفوق على الجميع.

ويقوم فكر المعتزلة على عدة أسس.

الأولى: القول بنفى الصفات عن الله سبحانه مثل صفة العلم والقدرة والإرادة، فهم يرون أن وجود الصفات يعنى تعدد خلود القديم فإذا قلنا أن سبحانه وتعالى قادر فهذا يعنى أن القدرة بذاتها لازمت سبحانه وتعالى منذ الأزل ولا أزلى أو قديم أو خالد إلا هو سبحانه وتعالى. ولهذا يرون أن هذه الصفات ليست قائمة بذاتها ولا مستقلة عن الذات الإلهية بل هى والذات الإلهية شئ واحد.. وهذا هو معنى التوحيد عندهم.

والثانية: هى القول بالقدرة، أى قدرة الإنسان على الفعل والاختيار، أفعاله تأتى من اختياره ومن هنا تأتى مسئوليته عنها ويقول الشهر ستانى: كانوا يقولون أن الله تعالى حكيم عادل ولا يجوز أن ينسب إليه شر أو ظلم ولا يجوز أن يريد من عبادة ما يخالف أوامره. فالعبد هو الفاعل للخير وللشر، وللطاعة والمعصية. ويثاب أو يعاقب على فعله وهذا معنى العدل عندهم. ولهذا لخص الفقهاء الفكر المعتزلى بالعدل والتوحيد.

والحقيقة أن الجاحظ قد برز بعد ذلك كواحد من أبرز مفكرى المعتزلة. وللجاحظ آراء شديدة الجرأة فقد رفض أن يعالج الحديث عن الصحابة عبر تقديسهم، أو منحهم مكانة خاصة بل يتعين على من يؤرخ لهم أو لزمانهم أن يستخدم العقل كميزان لتقييم أفعالهم. وأكد الجاحظ أن سب الحاكم الظالم ليس بدعة، وعجب من قول البعض بأن قتل المؤمن عمداً ملعون ويعاقب على فعلته، فإذا فعلها السلطان سكتوا. وقال بضرورة الخروج على الحاكم الظالم وإحلال عادل محله دون إحداث مفسده تزيد عما يتحقق من منفعة بهذا الخروج. والمعتزلة هم أرباب علم الكلام فى شئون العقيدة. ويقول أحد خصومهم "هم أرباب الكلام وأصحاب الجدل والتمييز والنظر والاستنباط والحجج على من خالفهم، وهم المفرقون بين علم السمع وعلم العقل، والمنصفون فى مناظرة الخصوم" لكنهم ما لبثوا إن قالوا بخلق القرآن. [لمزيد من المعلومات عن فكر المعتزلة راجع: أبن جرير الطبرى - الجامع لأحكام القرآن - الجزء الثالث - صـ١١٨وما

بعدها - وأحمد أمين- فجر الإسلام - صـ٢٩١] ويمكن تلخيص الفكر المعتزلى بأنه بدأ بالعدل والتوحيد وإخضاع كل شئ للعقل وإرادة الإنسان فى كل ما يفعل.. قالوا بالحرية والعدل والعقل ثم استخدموا السيف لردع كل من خالفهم. فوضعوا لبنه فى عملية استبعاد العقل وظلمه الفكر. وذلك عبر تكفير من لم يوافق رأيهم مستندين إلى سجون وظلم وسيف الخليفة المأمون. ونقرأ "بدأت محنة القول بخلق القرآن بأن أمر المأمون فرض هذا القول فرضاً. وأمر بحرمان من ليس من مذهبه من تولى الوظائف أو الإفتاء أو قبول شهادته فى أى خلاف، فالقول بقدم القرآن وأنه غير مخلوق يشبه الشرك بالله ومن ثم يجب العمل على رد الناس عن هذا الشرك، كما يرد الكافر عن كفره، فإن أبى يقتل كالمرتد وإذا كان علماء الكلام هم القدوة فى العقائد وجب البدء بهم بتصحيح عقائدهم وعقابهم إن أصروا على موقفهم بل وقتلهم أحياناً" [أحمد أمين - ضحى الإسلام - صـ١٧٥]. ويرسل المأمون كتاباً إلى واليه اسحق بن إبراهيم يصف فيه الرافضين للقول بخلق القرآن بأنهم "الجهلة الذين سهلوا السبيل لعدو الإسلام وليس لمن قال هذه المقالة حظ فى الدين ولا نصيب من الإيمان واليقين. ولا يحل أحد منهم محل الثقة فى ذمته ولا عدالة له ولا شهادة، ولا صدق فى قوله ولا حكاية، ولايتولى شيئاً من أمر الرعية [المرجع السابق - صـ١٧٨] ويسمع المأمون أن بشر إبن الوليد يرفض القول بخلق القرآن فيأمر بسجنه ثم لا يكتفى بذلك بل يأمر واليه بأن يستدعيه ثم يأمره "فإن

أصر على الشرك ولم يقل بخلق القرآن فأضرب عنقه وابعث برأسه، وإن تاب أشهر توبته". ويرفض أبن العوام القول بخلق القرآن فيرسل المأمون إلى واليه قائلاً "إن أبن العوام سيحسن الإجابة فى القرآن إذا أخذه التأديب فإن لم يفعل كان السيف وراءه" [المرجع السابق - صـ١٨٣] وكذلك كان الحال مع الإمام ابن حنبل فلما تسلل إليه فى السجن عمه إسحاق طالباً منه مجاراة المأمون لينقذ نفسه رفض قائلاً "يا عماه إذا أجاب العالم بالباطل والجاهل يجهل فمتى يعلم الناس؟" ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى اعتقادنا بأن مسألة خلق القرآن أى أنه لم يكن موجوداً فى البدء ليست اكتشافاً معتزلياً لكنها فيما أعتقد منسوخة بغير إتقان عن نزاع نشب بين رجال الدين المسيحى عندما قال آريوس أن يسوع لم يكن موجوداً فى البدء لكن الله خلقه فيما بعد وتطلب هذا الخلاف عقد مجمع نيقيه [325 ميلادية] الذى حكم بتكفير آريوس وأصدر قراراً محدداً يقول أن يسوع المسيح "إبن الإله الوحيد الموجود قبل كل الوجود والذى نزل من السماء إلى الأرض من أجل خلاصنا" [راجع للتفاصيل كتاب السنكسار الجزء الأول].

.. وهكذا كان الفكر المعتزلى أساسا لتأسلم من نوع ساد فيما بعد.. أن تقول إسلاماً وتفعل تأسلماً ألم يحذرنا الرسول (صلعم) "سيخرج من أصل هذا الدين قوم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية".

ونمضى فى بحثنا عن مصادر التأسلم فى الفكر العربى

والاسلامى. وعن كيفية استخدام الدين كأداه وغطاء لتحقيق أهداف ومطامع سياسية. فيصل بنا البحث إلى تلك الثورة الشهيرة والتى عرفت بإسم ثورة الزنج. ففى فترة مظلمة من الخلافة العباسية تضافرت ظروف الاستبداد السياسى والاجتماعى والاستغلال الوحشى للعبيد فى ظل هيمنة تركية على السلطة جعلت من الخليفة العباسى مجرد أيقونة دينية يتخفى خلفها طغاة وبغاه. إلى درجة أن أحد هؤلاء الخلفاء الضعفاء كتب شعراً يتأوه فيه من قلة حيلته فقال الخليفة المعتمد (٢٥٦هـ)

أليس من العجائب أن مثلى
يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعا
وما من ذاك شئ فى يديه
إليه تحمل الأموال طراً
ويمنع بعض ما يجبى إليه

(أبو الفوز محمد البغدادى - سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب - ص ٨٧). والحقيقة أن ثورات عدة قد تفجرت. وعديد من الخلفاء حاول التمرد ضد التحكم التركى مثل الخليفة المنتصر بالله (٢٤٧هـ) الذى استند إلى جموع من العلويين لكنه قتل مسموما وبذات المصير قتل الخليفة المهتدى بالله. واستمرت ثورات متتالية منها ثورة الكوفة بزعامة أبو الحسين يحيى بن عمر والذى يمتد نسبه إلى على بن ابى طالب، وثورة طبرستان بقيادة سليل آخر

لعلى هو الحسن بن زيد . لكن هذه الثورات ما لبثت أن سحقت حتى كانت ثورة الزنج التى تميزت بغلافين أساسيين فتحا أمامها باب الصمود . أولهما الغطاء الدينى ، ويتحدث الطبرى عن قائدها قائلا " لقد أحله رجاله محل النبى وجبى له الخراج ونفذ حكمه بينهم " (ابن جرير الطبرى - تاريخ الرسل والملوك) . وكان قائد هذه الثورة على بن محمد بن على بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب أى أنه حقا وفعلا من سلالة على ، وكان فوق هذا عالماً وشاعراً يعيش فى سامراء كمعلم للخط والنحو والفلك وبدأ ثورته فى مدينة هجر أهم مدن البحرين ثم فى الاحساء فى محيط عربى خالص واستمرت كذلك من ٢٤٩ هـ - حتى ٢٥٥ هـ ثم كان قتال بين جيش الدولة وجماعته وانتصرت جيوش الدولة وقبض على ابنه وزوجته وابنته أما هو فقد فر بمن تبقى من جنده إلى البصرة وهى أهم مدن الجنوب الذى كان مليئا بالرقيق والعمال والفقراء الذين يعملون فى مجارى المياه ومصابها ، ويقومون بكسح السباخ والأملاح التى تتراكم فى مياه الخليج لحماية التربة من تراكم الأملاح حتى تبقى صالحة للزراعة . وكانت ظروف العمل شديدة القسوة وغير إنسانية ويشرف عليها وكلاء شديدى القسوة يعملون لحساب أشراف من العرب والفرس وكان بعض هؤلاء العبيد مجلوبين من أفريقيا ومن النوبة وبعضهم من القرماطيون أما فقراء العرب فكانوا يعاملون ذات المعاملة ويسمون الفراتين " فقرر على بن محمد أن يتقرب إلى العبيد وأن يتحرك بهم فى مواجهة الاستعباد فيحررهم ويحرر بهم

الدولة العباسية وكان أول زنجى ينضم إليه هو ريحان بن صالح الذى أصبح واحداً من أشهر القادة العسكريين. وتنقل على بن محمد مع رجاله بين مواقع عمل الرقيق والفراتين داعياً إياهم للثورة والهروب إلى معسكره واستجابت له ألوف من الزنوج والفراتين والنوبيين وتشجع بهم العديد من العرب والأعراب وقد فشل المشرفون على تسخير هؤلاء فى منعهم من الفرار والالتحاق بالثائرين، ويقول الطبرى " فكانوا يحبسونهم فى البيوت ويسدون أبوابها ونوافذها بالطين ويقتلون الفارين دون فائدة" (الطبرى - المرجع السابق) ويصف ابن خلدون زحف العبيد إلى جموع الثورة قائلا " لقد تسايل إليه الزنج فاتبعوه" (ابن خلدون - المقدمة - ص ٢٩٠)

كذلك حصن محمد بن على نفسه بالدين فهو سليل على ابن ابى طالب. فكان يصيح فى جنوده "والله ما ثرت لغرض من أغراض الدنيا ولا من أجل الملك وإنما لله سبحانه وتعالى، وسأكون معكم فى الحرب أشارككم فيها بيدى وأخاطر معكم فيها بنفسى وليحط بى جماعة منكم فإن أحسوا منى ضعفا أو هربا أو غدراً فتكوا بى فوراً" . (الطبرى - المرجع السابق) .

أما عن الخلافة فقد رفض خلافة بنى العباس وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين بل وأعلن أن الخلافة من حق كل مسلم ولا يجوز حصرها فى قريش رغم أنه وكبار قادة جيشه قرشيون، فأطمع الزنوج فى كل المناصب حتى الخلافة. أما الغطاء الاجتماعى فكان المساواة وتحرير العبيد وتحويلهم إلى سادة ويكون لهم حق التملك للأموال

والضياع. ودعا إلى نظام اجتماعى ذا طبيعة جماعية تشبه كثيراً ما قيل عن الأنظمة الشيوعية التى لم تزل حلماً عند أصحابها حتى الآن. فالجميع ينتجون ويتكافلون "

وقد طبق هذا النظام بالفعل فى كل مكان يسيطرون عليه. وقد عرض عليه الأشراف من العرب والفرس بأن يعيد إليهم عبيدهم مقابل خمسة دنانير عن كل رأس فرفض بل صادر أملاكهم وعاقبهم هم ووكلائهم فطلب من كل جماعة من العبيد أن يجلدوا علنا سادتهم القدامى. وهكذا إلتهبت النفوس بعشق هذه الثورة وتوالت انتصاراتها.. ولكن إلى حين.

ونمضى مع على بن محمد قائد ثورة الزنج وهو يحقق بغلافه الدينى وبغلافه الاجتماعى انتصاراً بعد انتصار. وإنتصرت قواته من موقعة لآخرى فأقام دولته التى فاقت قوتها كل ما عرفته دولة الخلافة العباسية من ثورات وانشقاقات حتى أن المؤرخين المشهورين والذين كانت الدنيا عندهم هى الإمبراطورية العباسية قالوا أن "الزنج قد اقتسموا الدنيا كلها واجتمع إليهم من الناس ما لا ينتهى العد والحصر إليه وكان عماله يجمعون له الخراج حتى خاف الناس على ملك بنى العباس من الانقراض" [الجاحظ - ثلاث رسائل - رسالة فخر السودان على البيضان - تحقيق فان فلوتن (١٩٠٣) - صـ٥٨] وأقام على بن محمد عاصمة لملكة أسماها المختارة أنشأها فى منطقة تتخللها فروع الأنهار. وأقام مدنا أخرى وتمدد حكمه الى مناطق ومدن عديدة مثل البحرين والبصرة والأيلة والأهواز

والقادسية وواسط وجنبلاء وباذاورد والنعمانية والمنصورة وخوزستان وعبادان وعديد آخر من المدن واغلب سواد العراق" [ابن جرير الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - المرجع السابق] واستمرت الحروب بين جيوش على بن محمد وجيوش الخلافة لأكثر من عشرين عاماً بلغ فيها العنف مبلغاً غير مسبوق حتى أن المؤرخين الموثوق بهم يصلون برقم القتلى فى هذه المعارك الى نصف مليون قتيل. ثم ما لبثت الثورة أن فقدت قوة دفعها وتحولت أطروحاتها إلى عوامل هدم داخلية فتهاوت تحت ضربات جيش "الموفق" أخو الخليفة المعتمد. وحاصر الموفق عاصمة الزنج لأربعة سنوات، وكانت مصر قد استقلت عن دولة الخلافة وكان لها جيش قوى تحت حكم أحمد بن طولون [٢٢٠ - ٢٧٠ هـ] وإذ أرسل أبن طولون جيشه لفتح الشام بقيادة قائد أسمه لؤلؤ وكان حبشياً خان لؤلؤ سيده وانضم إلى جيش الموفق واستمرت دولة الزنج تقاوم حتى ٢٧٠هـ فكانت أكبر ثورات الحكم العباسى وأخطرها [موسوعة الحضارة العربية الإسلامية - الجزء الثانى].

وهنا يثور التساؤل حول أسباب انهيار هذه الثورة ودولتها.. ويحاول ابن خلدون تفسير أسباب الثورة وأسباب انهيارها قائلاً "من الغلط فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال تبدل الاعاصير، وهو داء شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يتعظن إلا الآحاد من الخليقة، ذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدور على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر،

وإنما اختلاف بين الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. سنة الله قد خلت فى عباده" [ابن خلدون - المقدمة - الجزء الأول - طبعة ٣ - صـ١٩٤]. لكن هذا التفسير المعقد لغوياً لا يقدم لنا تفسيراً مقبولاً.. فلماذا إذن إنهارت دولة الزنج ؟

- أولاً: إذا كان لجوء على بن محمد إلى الزنج والعبيد ليدعم بهم ثورته وقد دعموها وكانوا سبباً أساسياً فى انتصارها فإن التمادى فى الاعتماد على الزنج واستمرار إنحياز الوحدات الزنجية فى جيش الخلافة إلى الثورة فى كل صدام، أدى الى مخاوف شديدة لدى العرب الموالين لعلى بن محمد والمشاركين معه فى الثورة ففترت عزيمتهم وحماسهم لثورة أصبحت زنجية بالأساس، بل وخاصموها وأسهموا فى مواجهتها.

- ثانياً: إن زهو الانتصارات وتمادى الخصومة وهيمنة الزنج دفعت جيوشهم فى خضم المعارك الى ارتكاب أعمال منكرة وبشاعات فاقت كل تصور، وارتكبوا ذات ما كانوا يشكون منه. فعند استيلائهم على البصرة اعملوا القتل الوحشى والنهب والسلب وقتلوا من سكانها وهم فى اغلبهم من العرب ٣٠٠ إلف إنسان وأسروا الأطفالوسبوا النساء واغتصبوا الأبكار والحرائر، فإنفض العرب عن الثورة وعن دعوتها بل وناصبوها العداء.

- أما على بن محمد والذى تقدم لإتباعه كواحد من سلالة على بن ابى طالب فقد تمادى فى الادعاء وتلبسته حاله من إيهام الإتباع بأنه فى مرتبة فوق البشر. ويقول الطبرى وهو من أكثر المؤرخين

كتابة عن الزنج وثورتهم ومن أكثرهم ميلاً لهذه الثورة حتى قيل عنه أنه مؤرخها المعتمد إن "إتباع على بن محمد كانوا يعاملونه كنبى، وكان يعدهم بالجنة فيصدقونه ويخضعون له تماماً" [ابن جرير الطبرى - المرجع السابق] وتمادى على بن محمدفإدعى العلم بالغيب، وزعم أن وحياً يأتيه من السماء وأن الملائكة تقاتل معه. وأكد لإتباعه أن من يحاربهم كافر وقتله حلال، واستحل دماء مخالفيه وأموالهم ونساءهم. وعامل الأسرى كعبيد ومنح رجاله المقربين والذين كانوا عبيداً قبل أن يحررهم، عدداً من الأسرى ليستخدمونهم كعبيد فحولهم من عبيد الى ملاك للعبيد وحثهم على ظلم ما تملكوه من عبيد وأظهر نزعة عنيفة ومتعصبة وخالية تماماً مما قال به فى بداية دعوته من عدل ورحمة [للتفاصيل راجع: موسوعة الأديان الميسرة - دار النفائس- بيروت صـ١٢٨٢].

وهكذا نكتشف الخيط الرفيع الفاصل بين الإسلام والتأسلم.. فالإسلام على يدى على بن محمد كان رحمة فتحول إلى عسف، وكان عدلاً فتحول إلى ظلم، والاستعباد كان محرماً فصار مكرساً، والغلاف الدينى كان تعبداً فتحول الى تأله وإدعاء مشين. وهكذا تحول إسلامه إلى تأسلم. وصار نموذجاً لممكنات تكرار مثل هذا التحول.

وإذا كانت ثورة الزنج "علوية" الاتجاه [أى تستند فى دعوتها إلى حق على بن أبى طالب فى الخلافة وإلى مناهضة خصومه] فإنها - كما رأينا - تطورت إلى تأليه أمير المؤمنين على بن محمد. فهكذا

يبدأ الموقف إسلاماً ثم يمتد ويتطرف وتأتيه غواية السلطة والتسلط فيصبح تأسلماً. وهو ما يتمادى الآن فى صورة "ولاية الفقيه" فى السلطة الحاكمة فى إيران. ويجرى فى مصر الآن توزيع كتاب مطبوع فى طهران طباعة فاخرة ويجرى توزيعه مجاناً فى أماكن عده، والكتاب عنوانه " بين ولاية الفقيه وحكم الشعب ". والفكرة المحورية لهذا الكتيب هى الدعاية " لولاية الفقيه " وهى النظرية الرسمية للحكم الإيرانى. وتتبلور هذه الفكرة وتتلخص فى نظرية تقول أن ولاية الفقيه تعنى أنه يمتلك وحده كل السلطة والسلطان دون أية مشاركة من أحد، حتى لو كان هذا الأحد هو الشعب بأكمله. والفقيه صاحب الولاية يمتد حكمه إلى المسلمين جميعاً ليس فى إيران وحدها وإنما فى العالم أجمع.. ونقرأ فى هذا الكتيب المجانى والكثيف التوزيع عبارات نوردها نصاً:

- " والفقيه يتزعم الأمة ويقودها بوصفه نائب الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف " (ص٥).

- " أن ولاية الفقيه هى أساس الحكومة الإسلامية، وبدونها لا يكون النظام إسلامياً (ص٧).

ولكن من أين تأتى هذه السلطة كلها ؟ يجيب الكتاب:

- تنشأ ولاية الفقيه من ولاية الإمام، فيما تنشأ ولاية الامام من ولاية الرسول الكريم (ص٩).

- " أما ولاية الرسول فتنشأ من ولاية الله تبارك وتعالى.. يقول الإمام الصادق (عجل الله فرجه الشريف) " ولايتنا ولاية الله التى

لم يبعث نبى قط إلا بها " (ص ١٢) وهو الأمر الذى يثير تساؤلا حول من هذا الذى يضع نفسه فى مصاف الأنبياء ؟

– وعندما يثار الحديث عن " التشريع " يجيب الكتيب " إن هناك قوانين ثابتة هى الشريعة وهناك القوانين المتغيرة والمؤقتة التى تشرع وفقا للحاجات والظروف" وحتى هذه القوانين المتغيرة " يجب أن تشرع من جانب ولى أمر المسلمين أى الشخص الذى تفوض له هذه المسئولية من جانب الله " ويقول " أن وضع هذه القوانين هو من حق ولى الأمر وبدون إقراره لها ، وموافقته عليها لا يكون القانون شرعيا أى لا يكون إسلاميا وإلهياً " (ص٢٥) . . ولا تعليق

– ثم " إذن ومن خلال الأخذ بنظر الاعتبار إلى هذين النوعين من القوانين (الثابتة والمتغيرة) تتبين لنا الحاجة إلى مسألة الوحى ووجود شخص من قبل الله يكون بمثابة ولى أمر المسلمين يستطيع فى جميع الأزمنة وضع القوانين المطلوبة سواء كان هذا الشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الإمام المعصوم عجل الله تعالى فرجه الشريف أو نائب الإمام المعصوم فى زمان غيبته " (ص ٢٧) .

– وإذا كان الجميع متساوون عندهم : الرسول الكريم والإمام المعصوم ونائب الإمام المعصوم فى زمان غيبته فهم جميعاً مختارون من قبل سبحانه وتعالى فإن هذا الكتاب يؤكد " إذن فالشخص الذى يصل إلى الولاية من قبل الله ، تكون ولايته حقه ، ويستطيع أن يأمر الناس ، كما يجب على الناس إطاعة أوامره ، لأن طاعة الله واجبة ولهذا تجب إطاعة الرسول والإمام المعصوم

والقادة الإلهيين " (ص ٢٨) . . أتمنى أن تلاحظ عزيزى القارئ تعبير "القادة الإلهيين " . .

– ومن هنا تكون الديمقراطية وحكم الأغلبية والإرادة الشعبية كلها أمور مرفوضة، ويقول الكتيب بضرورة رفض هذا النوع من الحكومات التى يكون هدفها الاستجابة لمطالب الشعب، أى مطالب أكثرية الشعب فيكون الحق والباطل، والصالح والطالح، والمصلحة والمفسدة هى رغبات الأغلبية، ويكون الحق هو ما تقبله الغالبية، وهذا كله مرفوض وعلينا أن نتمسكبما أسماه الكتيب " الحكومات الإلهية والسماوية التى تهدف إلى ضمان مصالح الشعب، حتى وإن خالفت – فى بعض الحالات – رغبات أبناء الشعب " (ص ٥٠) .

* وإذ يلح علينا سؤال من سيختار هذا الحاكم . . أو الفقيه أو الإمام أياً كانت تسميته والذى يمتلك سلطات إلهية لا ينازعها أحد ويجيبنا الكتاب فى ترفع " أن تأييد الرأى العام ليس شرطاً لإثبات الولاية، فإذا جعل الله شخصاً ما ولياً للأمر، تكون له الولاية حتى وإن رفض الشعب قيادته " (ص ٦١) . وهكذا يتجسد التأسلم فى صورة حاكم مستبد يغلف استبداده بأن يعلن أنه المتحدث بأسم السماء ويرفض الديمقراطية ويفرض طاعة القائدالآلهى " .

والحقيقة أن أكثر النزوع للخلاف بين المسلمين جاء صراعاً على السلطة . وفور وفاة الرسول وانقطاع الوحى وتحول مسألة الحكم إلى مسألة إنسانية صرفه، بدأ النزاع فى سقيفة بنى ساعده وكانت هناك ثلاثة آراء، الأنصار الذين فتحوا أبواب المدينة للرسول عقب

هجرته واحتضنوه وأحتضنهم وبعد وفاته طالب ممثلهم سعد بن عبادة أن تكون الخلافة لهم، ثم قال: منا أمير ومنكم أمير، وقال أبو بكر بعنف "أنت تعرف يا سعد أن رسول الله قال أن هذا الأمر كله من قريش. ولكن سعداً أبى أن يبايع أبو بكر وترك الى الشام وهناك قيل أن الجن قد شكت قلبه وقتلته لأنه تبول واقفاًوهذه واحدة من مقولات الجاهلية التى حذرت الرجال من التبول واقفين. لكن الشاعر أبى ألا أن يقول ما يعتقد أنه الحقيقة فقال:

يقولون سعداً شكت الجن قلبه .. ألا ربما صححت دينك بالغدر

وماذا ذنب سعد أنه بال واقفاً .. ولكن سعدا لم يبايع أبا بكر

ولعل أخطر ما فى هذين البيتين هو الشطرة التى تقول "ألا ربما صححت دينك بالغدر" ومعناها واضح ومغزاها أوضح.

لكن فريقاً ثانياً كان هناك فى سقيفه بنى ساعده وهم آل بيت رسول الله الذى رأوا أن علياً بن أبى طالب هو الأولى بالخلافة، فقال عمر بن الخطاب قوله الواضح والصريح "إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا فى السماء شمخاً بذخاً" [ابن أبى الحديد - شرح نهج البلاغة - الجزء الثانى - صـ٩] وكان أن تولى الأمر أبو بكر وأدرك الرجل حدوده كحاكم يحكم بما يراه ملائماً ومتمشياً مع شرع الله وسنة رسوله، فوقف خطيباً وقال "أما والله ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامى هذا كارهاً، ولوددت أن فيكم من يكفينى" ثم سأل الجالسين: "أتظنون أنى أعمل فيكم بسنة رسول الله ؟ إذن لا أقوم بها، إن رسول الله كان يعصم بالوحى، وكان معه

ملك، وأن لى شيطاناً يعترينى، ألا فراعونى وإن زغت فقومونى" [أبو جعفر الطوسى - تلخيص الشافى-الجزء الأول - صـ٩] لكن شيعة آل البيت لم يقبلوا بذلك. وتبقى عقده سقيفة بنى ساعده مستمرة حتى الآن. ومازالوا لم يقبلوا بها، وإن كان على بن أبى طالب قبل وبايع أبى بكر. فهم يضيفون إلى خطبة الرسول فى حجة الوداع ما يؤكد ذلك فأضافوا "على منى وأنا من على، من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم وإلى من والاه وعادى من عاداه، إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى كتاب الله وعترتى وأهل بيتى" ونتأمل الإضافات بل نتأمل "كتاب الله" ومرادف له "عترتى وأهل بيتى". ونقرأ تعليقاً على هذه الإضافات "إن الوصية مدقوقة كالوشم على جبين على، لا التاريخ عمى ولا أى رجل كريم من رجالات هذا العصر كان يعمى عن قراءة الحقيقة، ولكن سياسات الزعماء المتشربين روح القبليه هى التى عميت" ثم يكون الهجوم على عمر بن الخطاب شديداً وقاسياً ونقرأ "لم يكن عمر بن الخطاب ضعيف السجية، إنه كريم عفيف بن الرجال ولكن عنجهية قبلية نائمة فى بطانة نفسه ما سمحت له، ولا قبلت أن يتقدم عليه وعلى أمثاله من وجهاء الجزيرة فتى لا يزال أمرد، لقد كان حس إبن الخطاب بمركز الزعامة أرجح من حسه بقيمة الرسالة، أن هناك خبيئة من الماضى الوخيم تعشش فى ضلوعه إنها الأموية فيه ضد الطالبية والهاشمية [أى ضد بنى طالب وبنى هاشم] ثم يمضى صاحب الكتاب قائلاً "لقد وظف ابن الخطاب اجتماع سقيفة بنى

ساعده ليبعد علياً عن حقيقته وحقوقيته فى الإمارة وإحلال أبى بكر فيها، كأنما الرضوخ لمشيئة النبى هو الخطأ والوقوع فى المعصية هو الصواب" [سليمان كتانى - الإمام الحسين فى حلة البرفير - طبعة طهران - صـ٧٢]. وتمادى هذا الموقف ليخلق حالة من العداء لأبو بكر وعمر وعثمان إلى درجة أن بعض متطرفى شيعة العراق أخذوا فى الفترة الأخيرة فى قتل كل من تسمى بهذه الأسماء، وما زالت هذه الأسماء ممنوعة من التسمى بها فى إيران حتى الآن. ثم يكون القتل وسيلة عند البعض سبيلاً للتقرب الى الله. رغم نهى الإسلام عن ذلك نهياً قطعياً. ويقول الفخر الرازى فى [التفسير الكبير] تفسيراً للآية الكريمة "إن الله يدافع عن الذين آمنوا. إن الله لا يحب كل خوان كفور" [الحج -٣٨] إن مسلمى مكة استأذنوا الرسول الكريم فى أن يقتلوا المشركين الذين آذوهم وأن يكون القتل سراً أى غيله أو أن يفاجئوهم بالقتل فتكاً فرفض الرسول قائلاً "الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مسلم" ونزلت الآية السابقة تأكيداً لقول الرسول. ويروى الدينورى أن مسلماً بن عقيل رفض أن ينفذ أمر قائد شيعى باغتيال عبد الله بن زياد مستنداً الى هذا الحديث الشريف [الدينورى - الإحداث الطوال - صـ٢٣٦]. واستخدم ذات الحديث فى إدانة مقتل الحسين [أبو الفرج الاصفهانى - مقاتل الطالبيين]. وهكذا ورغم كل هذا النهى فإن الإسلام يتحول بالتطرف والتنكر لحقيقة الاسلام الى تأسلم وتجبر وعنف قادنا ويقودنا إلى ما نحن فيه. بل أنه يقودنا إلى محاولة تألية الحاكم.. أو بالدقة الإمام وهو ما

رأيناه فى أسطر سابقة. ويمضى التشيع لآل البيت إلى هذا المسار حتى نأتى كمجرد مثال إلى الحاكم بأمر الله الفاطمى. والذى تأله وأدعى هو أيضاً كقائد ثورة الزنج العلم بالغيب وجاءه الشعراء المنافقون مادحين فقال ابن هانئ الاندلسى:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فإحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبى محمد
وكأنما أنصارك الأنصار.

ولأنه كان يفزع خصومه وأنصاره زاعماً أن وحياً يأتيه، وأنه يعلم الغيب فقد كتب أحد المصلين شعراً فى ورقة وناولها لمن أمامه خلال صلاة الجمعة التى كان الحاكم بأمر الله يؤمها وتناولتها الأيادى الواحدة تلو الأخرى ولأنها كانت مغلقة ومكتوب على المظروف أسم الحاكم.. فقد وصلت إليه مغلقة وفتحها الحاكم وقرأ فيها:

بالظلم والجور قد رضينا
ولم نرض بالكفر والجنابة
إن كنت تعلم الغيب حقاً
فإعرف صاحب الكتابة

ولم ينطق الحاكم. لكن التأسلم كان ولم يزل قادراً على التوالد.

مصـــر.. والتأسلم العثمانى

وفى مصر جرى حديث كثير يرفض «مصر» الوطن ويواجهها بفكرة الخلافة، ويتحدث أصحاب هذا الرأى بشغف ووله عن الخلافة العثمانية. وفى مواجهتهم يكون هتاف الشعب المصرى الذى استمر يردده لأمد طويل «يارب يا متجلى أهلك العثماللى».

فكيف كان ذلك؟ ولماذا؟

فكيف بدأت علاقة مصر بالعثمانيين وخلافتهم؟ لنعد إلى صفحات التاريخ.

كان سلطان مصر فى هذا الزمان قنصوه الغورى، وكان يقوم كل عام بالواجب المصرى القديم برعاية الأماكن المقدسة سواء فى مكة أو المدينة أو القدس. وكان حاكم مصر يشرف بنفسه على صناعة كسوة الكعبة وتسفيرها مع ركب المحمل. وأتى البريد إلى قنصوه

بأن الخليفة العثمانى يحشد حشوده لغزو مصر ،فوجه رسالة إلى السلطان سليم الأول جاء فيها «علمنا أنك جمعت عساكرك وأنك عزمت على تسييرهم علينا فتعجبت نفسنا غاية التعجب لأن كلنا والحمد الله من سلاطين أهل الإسلام، وتحت حكمنا مسلمون موحدون» .

فرد السلطان سليم فى كذب سافر «يعلم الله وكفى به شهيدا أنه لم يخطر ببالنا طمع فى أحد سلاطين المسلمين أو فى مملكته، أو رغبة فى إلحاق الضرر به فالشرع الشريف ينهى عن ذلك» [ابن إياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الجزء الثانى - صـ١٢٤].

لكن سليم الأول كان رغم ذلك مصمماً على غزو مصر ولم يكن ينتظر سوى فتوى تبيح له ذلك فكيف يغزو بلدا يسمى سلطانه نفسه «خادم الحرمين الشريفين» ويقوم بكسوة الكعبة ويحتضن الأزهر الشريف. وأخيرا جاءت الفتوى على يد قاضى عسكر الأناضول كمال باشا زاده. واستند فيها إلى الآية الكريمة «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» وتمضى الفتوى لتقول أن الأرض هى مصر لأنها وردت فى آية قرآنية مشيرة إلى مصر. أما عبادى الصالحون فهم طبعاً العثمانيون.

وقد كان، فقد سارع مفتى الأستانة هو أيضا ليؤيد فتوى قاضى العسكر، فأصدر مفتى الأنام شيخ الإسلام فتوى بوجوب غزو مصر «لأن أهلها قطاع طرق والحرب والقتال ضدهم غزو وجهاد، والمقتول من جيوش السلطان فى هذه الغزوة شهيد ومجاهد» ..

وتقترب الجيوش العثمانية من مصر فيرسل سليم الأول إلى حاكمها آنذاك طومان باى رسالة يقول فيها «إن الله قد أوحى إلىّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين، وأنا خليفة الله فى أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين» وبدأ سليم الأول جرائمه فى مصر بشنق طومان باى على باب زويلة. ولم يغفرها له المصريون ويظلون حتى الآن يطلقون على هذه البوابة «بوابة المتولى» وهو أحد أسماء طومان باى ولم يزالوا يقرأون الفاتحة كلما مروا بالبوابة.

ويروى ابن إياس فى بدائع الزهور الكثير والمخيف من جرائم العثمانيين فيقول «وإتجهوا إلى الطحانين فأخذوا البغال والخيول، وأخذوا جمال السقايين، ونهبوا كل ما فى شون القمح من غلال، ثم صاروا يأخذون مواشى الفلاحين ودجاجهم وأوزهم وأغنامهم وحتى أبواب بيوتهم وخشب السقوف أخذوه». وأرسل سليم واحدا من أكثر رجاله توحشاً هو جان بردى الغزالى إلى الشرقية «فوصل إلى نواحى التل والزمرونين والزنكلون ونهب ما فيها من أبقار وأغنام وأوز ودجاج وقام بأسر الصبيان وسبى الفتيات باعتبار أنهم أبناء كفار وراح يبيعهم فى المحروسة بأبخس الأثمان، وسارع المصريون بشرائهم من سوق العبيد والجوارى ثم يهبونهم لأهاليهم، فاشترى أحدهم بنتاً بأربعة أشرفية (جنيهات) ووهبها لأمها، وراح الصالح بالطالح وصارت جثث المصريين مرمية من باب زويلة إلى الرميلة إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان ثم انهم أحرقوا جامع شيخو

فاحترق الإيوان والقبة» وترك سليم الأول فى مصر واليا تركيا يقول عنه ابن إياس «كان يصبح كل صباح وهو مخمور فيحكم فى الناس بالعسف والظلم وهو سكران»

ثم يلخص ابن إياس الأيام الأولى للغزو العثمانى قائلاً «وأشعلوا فى مصر جمرة نار» ولعل تلك الأيام هى التى لقنت المصريين الشعار الذى ظلوا يهتفون به أمداً طويلاً «يارب يا متجلى إهلك العثماللى».

ولم تكن هذه الشراسة والغطرسة مقصورة على تعامل العثمانيين مع شعب مصر بل شملت كل شعوب المناطق التى احتلتها، وشملت أيضا الهيئة التركية الحاكمة ذاتها «فالدولة العثمانية كانت دولة طبقية بمعنى الكلمة.. فالهيئة العثمانية الحاكمة بأكملها من أصغر موظف وحتى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) كانت بكل أعضائها عبيداً للسلطان ويطلق عليهم المصطلح التركى «قولار»، أى العبيد ومفردها «قول» أى العبد ويقصد به عبد السلطان، وكانت هذه هى تسميتهم جميعا فى الأوراق الرسمية» [عبد العزيز الشناوى (دكتور) - الدولة العثمانية - الجزء الأول - صـ٩].

وظلت العلاقة المصرية العثمانية مرتبكة، فالخصومه موجوده ومقترنه دوماً بالولاء للخليفة امير المؤمنين، يمنحونه خضوعهم الدينى ويهتفون فى نفس يا رب يا متجلى اهلك العثماللى .

وحتى نابليون عندما وصل الى القاهرة وزع بياناً قال فيه "أن الفرنسيس هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم نزلوا

رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على الحرب ضد المسلمين، كما أن الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى، وأعداء لأعدائه أدام الله ملكه" [عبد الرحمن الجبرتى - مظهر التقديس فى زوال دولة الفرنسيس - صـ١٢] ويقول الجبرتى "إن سارى عسكر الفرنسيس عندما دخل القاهرة دعا المشايخ العلماء والقضاه والأئمة طالباً منهم أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك فقالوا بصوت عال: أدام الله إجلال السلطان العثمانى وأدام الله إجلال العسكر الفرنساوى ولعن الله المماليك" [عبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار].

وهكذا أدرك حتى الأجانب قيمة اللعب على الوتر الدينى فى محاولة احتلالهم لمصر ونقرأ لادوارد ديسى "إن الدين الاسلامى يمثل مكاناً هاماً وغير عادى فى حياة المصريين بحيث أن تجاهله يعتبر تجاهلاً لأحد العناصر الحاسمة فى المسألة المصرية" [London - Egypt of the Future - Edward dicey - 1907 - p 179].

وهكذا كان العرابيون فى تناولهم لمسألة الخلافة. كانوا يتظاهرون بالولاء للخلافة ويعملون ضدها فى الخفاء، وكذلك كان الخليفة يخدعهم ويتآمر ضدهم. إنها لعبة خداع متبادل. ففى ٢٢ فبراير ١٨٨٢ تلقى عرابى رسالة سرية من راتب باشا جاء فيها "أن جلالة السلطان قد أبدى أسفه لأنه تأثر فى الماضى بالترهات التى قيلت عنك وقد أمرنى جلالته أن أبلغك برضاه السامى عنك" ثم ألمح له

"أن الباب العالى لا يتمسك بخديوى معين لحكم مصر لكن المهم هو أن يكون الخديوى شخصاً قادراً على حماية مصر ومستقبلها" ، ثم رسالة ثانية من الشيخ ظافر أحد رجال الباب العالى جاء فيها "والآن أبلغك خبراً غاية فى السرية هو أن جلالة السلطان لا يثق فى إسماعيل ولا حليم ولا توفيق وأن رجل المستقبل بالنسبة لمصر هو أنت"

wilfrid Blunt - Secret History of the English Occupation of Egypt. p. 258

وبالمقابل كان عرابى يناور فيقول لبلنت "إننا جميعاً أبناء السلطان نعيش كأفراد أسرة واحدة فى بيت واحد، وكل منا له أقليم من الإمبراطورية، أى له حجرة مستقلة فى المنزل، وهى حجرة خاصة بنا نتصرف فيها وفقاً لإرادتنا ويجب ألا نسمح لأحد بأن يعبث بسيادتنا، لقد حصلنا على وضعنا المستقل من خلال نضال مستميت، ولسوف نناضل للحفاظ عليه" [Blunt- ibid -p170].

ويكتب صابونجى لبلنت قائلاً "أنهم يتملقون السلطان ويعلنون ولاءهم له كخليفة للمسلمين لكن الحقيقة هى أن السلطان لا يعينهم فى شئ، إنهم يستخدمونه طالما أنه مفيد لهم، لكنهم لن يلبثوا حين يحسون بقوتهم أن يعلنوا تمردهم عليه، وإقامة جمهورية مستقلة فى بلادهم لقد قرروا ذلك منذ البداية. لكنهم ينتظرون الوقت المناسب" [ibid. p 347].

ويتواصل النفاق المتبادل. فالسلطان منح عرابى رتبة الباشوية

فمنح الثورة قوة دفع عندما أحس الفلاحون أن الخليفة يمنح عرابى دعمه. وينزعج مستر كارترايت ويوجه رسالة الى لورد غرانفيل وزير الخارجية البريطانية "أن النيشان الذى منحه السلطان لعرابى قد أعلى من مقامه فى أعين الجميع، وأعلى كلمته، وشد من عزائم الجهادية وجعل عرابى هو المشار إليه والمعنى بالأمر" [سليم خليل نقاش - مصر للمصريين - الجزء الخامس - صـ ٣٤] وفى نفس الوقت يكتب صابونجى الى بلنت "كنت أركب عربة حنطور مع عبد الله النديم وإذا به عندما وصل بنا الحديث إلى تركيا يصيح "كم أتمنى أن ينهدم عرش السلطان فوق رأسه". وبالمقابل كان شاعر تركى مرافق لوفد السلطان برئاسة درويش باشا يهجوا عرابى شعراً عقب معركة الإسكندرية أحرقت أعرابى ثغر بلادنا.. والله قد حاطت بك الآثام.

فإنظر جزاء الله يأتى عاجلاً.. يا بن الزنا ما هذه الإجرام [سليم نقاش - المرجع السابق - جـ ٥ - صـ٢٤٢].

ونعود إلى بلنت فبعد جلسة عقدها مع ضباط العرابيين قال " لقد أعربوا عن تحيزهم للنظام الجمهورى، وقد ظل محمود باشا سامى البارودى يعدد لى مزايا إقامة حكومة جمهورية فى مصر، وقال أننا منذ البداية نريد أن نكون دولة جمهورية مثل سويسرا لكن بعض العلماء والمشايخ يرفضون هذه الفكرة فهى شئ جديد على مجتمعنا وقد كلفنا عبد الله النديم أن يعد أذهان الجيل الجديد لذلك" [ibid - p. 344]. وفى ١٠ مايو ١٨٨٢ أبرق قنصل فرنسا

الى وزير خارجيته "أنهم حكومة ثورية يرغبون فى خلع الخديوى وعندما أقترح أحدهم أسم حليم باشا بدلاً عنه غضب عرابى وقال أننا نريد أن نتخلص من أسرة محمد على كلها" [لمزيد من التفاصيل عن مراسلات القناصل مع حكوماتهم حول ذلك الموضوع راجع: د. رفعت السعيد - الأساس الاجتماعى للثورة العرابية - الطبعة الخامسة - صـ ١٧٠ وما بعدها].

وفى نفس الوقت كان أنصار السلطان فى الداخل يهاجمون عرابى فيكتب فتح الله حمزة فى مجلة الاعتدال معدداً مخالفات عرابى للسلطان قائلاً: "أمره درويش باشا بقبول اللائحة الانجليزية فرفض - وأمره بعدم الرد على النيران فرفض - وأمره بالحضور إلى الإسكندرية فرفض - وأمره بإخلاء الطوابى فرفض". بل إن مراسل جريدة استاندرد يقول "أن عرابى يعتبر العساكر العثمانية إذا وصلت الى مصر تعامل كعساكر أجنبية" [الاعتدال - يوليو ١٨٨٢] وتكون المفارقة أنه ما أن بدأت قوات عرابى فى الرد على مدفعية الانجليز حتى خرجت جموع المصريين كما يقول دومريكر قنصل النمسا فى جماعات تحمل العصى والسيوف هاتفين فى الشوارع النصر للسلطان وعرابى" [Viscont Milner - England in Egypt (1907) p. 15].

وفى ظل هذا التجاور المليئ بالخداع والمناورات. وفيما تتقدم الجيوش البريطانية بعد معركة كفر الدوار قام كبار الملاك العقاريين من أمثال سلطان باشا وزمرته باستجلاب أعداد كبيرة من مجلة

"الجوائب" وهى الجريدة الرسمية للباب العالى الناطقة باللغة العربية وكانت تحمل فى صدر صفحتها الأولى "بيانامه" جاء فيه بإرادة سيدنا ومولانا السلطان المعظم أمير المؤمنين خليفتنا الأعظم إشعاراً لجميع المسلمين بأن الأفعال التى أجراها عرابى وأعوانه ورفقاؤه فى مصر مخالفة لإرادة الدولة العلية السلطانية ومغايرة لمصالح المسلمين، وبناء على ذلك تقرر أن عرابى وأعوانه عصاه بغاة وبهذه الصفة تجرى معاملتهم" [راجع النص الكامل فى سليم نقاش - المرجع السابق - صـ٢٠١]. . وتسارع الجنود والفلاحون الذين هتفوا آلاف المرات النصر للسلطان وعرابى. . إلى الانفضاض عن حرب يصف الخليفة أمير المؤمنين، حامى حمى الإسلام والمسلمين، خاقان البرين والبحرين، القائمين بها بأنهم بغاة عصاه.

. . وأستسلم عرابى. وردد المصريون فى مرارة "الولس هزم عرابى" ورددوا أيضاً "يا رب يا متجلى أهزم العثمالى".

وفى بعض الأحيان كان الالتزام بالانتماء الى دولة الخلافة العثمانية أداة تتحقق بها قدرة إضافية للنضال ضد خصوم الوطن. ولعل مصطفى كامل ومحمد فريد كانا النموذج لذلك. فهم أبناء أو بناة لحركة وطنية مناهضة فى الأساس للاحتلال البريطانى لمصر ولكن الحركة الوطنية كانت ضعيفة ومنقسمة فهناك أصحاب مجلة الجريدة مؤسسوا حزب الأمة الذين أكدوا أن مصر لا تستطيع بتكوينها المجتمعى وقدرتها الفعلية خوض معركة تصادمية مع الاحتلال، وأن الأمر يتطلب النهوض بالفرد والأسرة أولاً. والمطلوب

هو نهوض فكرى يمنح الفرد القدرة على إعمال العقل سعياً نحو تحرر وعلم وعقلانية يبنى معها مجتمع يستطيع بذلك أن يتواجه مع الاحتلال.

أما مصطفى وفريد فكانا طليعة لجماعة وطنية ترى وجوب السعى الفورى نحو الاستقلال ولأن القوة والقدرة الجماهيرية والمجتمعية كان محدودة فقد سعى مصطفى فى البداية للتحالف مع الخديوى الذى كان على خلاف مع جبروت كرومر. ونستمع إلى لطفى السيد فى مذكراته "أتممت الدراسة عام ١٨٩٤، وكنا نفكر فى حالة مصر وما تعانيه من الاحتلال البريطانى، وفى ذلك العام أنشأنا جمعية سرية غرضها تحرر مصر. وذات يوم كنت بالقاهرة فإلتقيت بمصطفى كامل فقال لى "أن الخديوى يعلم كل شئ عن جمعيتكم السرية وأغراضها وأظن أنه لا تنافى بينها وبين أن نشترك فى تأليف حزب وطنى تحت رئاسة الخديوى فقلت لا مانع عندى من ذلك".

وقابل لطفى السيد الخديوى عباس حلمى الذى طلب منه أن يسافر إلى سويسرا لمدة عام ليحصل على الجنسية السويسرية ثم يعود ليصدر جريدة لتقاوم الاحتلال.. ونواصل مع لطفى السيد "خرجت من مقابلة الخديوى وعقدنا اجتماعاً فى منزل محمد فريد وألفنا الحزب كجمعية سرية رئيسها الخديوى وأعضاؤها مصطفى كامل وفريد وسعيد الشيمى [ياور الخديوى] ومحمد عثمان ولبيب محرم وأنا" [أحمد لطفى السيد - قصة حياتى (١٩٦٢) -

صـ٢١]. وفى ذات الوقت أسرع مصطفى كامل فى الكتابة إلى مدام جوليت آدم ليخبرها "لنا حزب سرى مخلص للغاية وهو على إستعداد للتضحية بذاته فى سبيل الوطن المقدس" [رسائل مصرية فرنسية - ترجمة على فهمى كامل (١٩٠٩) - صـ٣٩]. لكن هذا الحزب ينفرط عقده، لطفى السيد وجماعته شكلاً مجموعة أصدرت "الجريدة" وأسست حزب الأمة.. الساعى أولاً نحو تكوين الفرد والأسرة، أما مصطفى وفريد فقد مضيا فى طريقهما ضد الاحتلال. وتحالفا مع فرنسا أملاً فى دعمها ضد الانجليز ويعلو صوت مصطفى كامل شعراً:

أفرنسا يا من رفعت البلايا
عن شعوب تهزها ذكراك
أنصرى مصر إن مصر بسوء
وإحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وأنشرى فى الورى الحقائق حتى
تجتلى الخير أمة تهواك

ويختتم رسالته إلى البرلمان الفرنسى "عاشت فرنسا محررة الأمم" لكنه لا يلبث أن يكتشف أن فرنسا تبيعه هى وكل أوربا فى صفقه مع الانجليز فيكتب الى مدام جوليت آدم "أنى لا أجد الكلمات التى أعبر بها عن استيائى.. يا للعار، إنه خير درس لنا نحن الذين طالما إعتمدنا على أوربا" [للتفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - محمد فريد - الموقف والمأساة - صـ١٥٨ وما بعدها] ثم يفقد مصطفى

الثقة فى الخديوى الذى مد له حبال الأمل ثم ما لبث أن رضخ لضغوط الانجليز وخشى من أن يقوموا بعزله. وتنشر ليتندار [صحيفة الحزب الوطنى الناطقة بالفرنسية] تصريحاً للخديوى يتملق فيه الاحتلال وترد عليه "سواء كان الخديوى على علاقة طيبة أو سيئة مع الانجليز فإننا سنستميت فى كفاحنا، إننا نخدم الوطن الذى يسمو على جميع الخديويين وجميع الرجال" [ليتندار - ٢٧-٥-١٩٠٧]. ثم تنشر "اللواء" قصيدة تنعى فيها علاقة كانت حميمة جداً مع الخديوى وربما كانت أكثر من حميمة..

أعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذاك عتاباً
ونيأس من أمالنا فيك كلما
قضيت علينا أن نكون غضاباً
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها
وأصليتنا بعد الوفاق عذاباً
ألا أمطر الله الوزارة نقمة
ولا بلغت مما تروم مراماً

وكى نعرف قدر هذا الغضب من الخديوى يكفى أن نقول أن هذا القصيدة كانت تعليقاً على إصدار الحكومة قانون المطبوعات الذى صيغ بعسف شديد ليكمم أفواه المعارضة.

هكذا تمرد مصطفى وفريد على الخديوى الذى رد عليهم فى تصريح لجريدة "الطان" الفرنسية قائلاً "لقد اشتغلت دائماً بترقية

بلادى وتقدمها فى الحضارة، ولكن للأسف وجد قوم متسرعون جداً جداً أخروا تقدمها الطبيعى بإلحاحهم على مطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء. ولى وطيد الأمل فى القيام بمهمتنا بمساعدة البلد الذى يؤيد مصرنا تأييداً قوياً فى رفع شأنها وتمدينها وهوبريطانيا. وإن وجود سير جورست ممثل هذا البلد بيننا يعتبر ضمانة وثيقة ليتحقق ذلك" [عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد - صـ١٩٩] وشن فريد الحرب علانية على الخديوى "وفى ١٩ يناير ١٩١٢ أقيم حفل بدار الأوبرا وعند حضور مندوب الخديوى عزفت الموسيقى السلام الخديوى فوقف الجميع إلا محمد فريد ولما عاتبه حسين باشا رشدى أجابه فريد بك "ليس هناك قانون يحتم على الوقوف" [أحمد شفيق باشا- مذكرات عام ١٩١٢].

فماذا تبقى أمام فريد ومصطفى كسند لهما فى المعركة ضد الاحتلال ؟ دولة الخلافة التى راهن عليها مصطفى ومعه فريد فى مساندتهما مالياً ومعنوياً وأدبياً. مستندين إلى مهابة كلمتى "الخلافة" و"الخليفة" فى معركتهما البالغة الصعوبة.

وهكذا وفى غمار التحالفات المجهضة التى حاول بها مصطفى وفريد إيجاد ولو ثقب إبرة بحثاً عن دعم خارجى لهما فى معركتهما ضد الاحتلال كان الميل باتجاه الخلافة العثمانية. فالولاء للخليفة العثمانى يعنى نفى مشروعية الاحتلال البريطانى، وفى هذا المناخ الشديد التعقيد وفيما كان الانجليز يضطهدون المتعلم المصرى الباحث عن وظيفة فى السلم الإدارى بمنح الأفضلية لأى

مسيحى شامى، الأمر الذى أشعل حالة من التشدد الاسلامى. والحقيقة أن الحزب الوطنى إذ أقترب من دولة الخلافة كان يقترب بنزعة إسلامية ووطنية فى آن واحد. غير أنه لم يكن موحداً فى هذا الصدد فقد تنازعه تياران تيار "متأسلم" يتمسك بالخلافة كنقيض حتمى للنزعة الوطنية التى يعتبرها خروجاً عن الملة ذلك أنه "لا وطنية فى الإسلام" وأن "إضاعة الخلافة إضاعة للذات". وتيار ثان يرى أن فكرة الخلافة مناهضة للنزعة الوطنية الخالصة. وأن شعار "مصر للمصريين" هو الشعار الصحيح. ومن هنا كان تحليل د.أنيس صايغ الذى قال "إن الحزب الوطنى كان مثل مصطفى وفريد مصرياً أولاً وإسلامياً ثانياً" [أنيس الصايغ (دكتور) - الفكرة العربية فى مصر - صـ ٤٩] وكان مصطفى واعياً تماماً لحقيقة المنزلق الذى أضطر إلى السعى نحوه، فهو يصرح لجريدة لكلير الفرنسية قائلاً "ومحصلة القول أن البحث فى المسائل الشرقية على مبدأ الدين من أكبر الوسائل لتوليد الأحقاد والضغائن وتأجيل توطيد السلام العام" [على فهمى كامل - المرجع السابق - صـ٣٥١] وكان فريد يمتلك هو أيضاً تحفظات ضد الأتراك ونقرأ فى مذكراته يوم ١٧ فبراير ١٨٩٤ "وينتظر تغيير المديرين الذين من الطبقة القديمة والاستعاضة عنهم بشبان متعلمين يدركون معنى الوطنية وحقوق الوطن عليهم، ولا يكتفون بالرواتب والأبهة والعظمة واضطهاد المصرى واحتقاره كالباشوات الذين من أصل تركى أو يدعون ذلك" ويصف الباشوات الاتراك "بأنهم لا يفقهون فى أمر البلاد إلا قولهم أن الدواء للفلاح

هو الكرباج" [مذكرات محمد فريد - القسم الأول - تاريخ مصر ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية - تحقيق د. رؤوف عباس - صـ٢١٧] ولكنه ما لبث أن أصدر فى عام ١٨٩٤ كتابه "تاريخ الدولة العلية العثمانية" وأشار فى مذكراته إلى أن هذا الكتاب قد أثبت "فضل الدولة فى إبقاء الإسلام والدفاع عنه مع مقاومة جميع دول أوربا المسيحية وبرهن على أن المسألة الشرقية دينية لا سياسية" [مذكرات - المرجع السابق - صـ١٩٣] ويقول فريد فى مذكراته "لا خلاص لمصر من استيلاء الانكليز عليها إلا بتقوية عرى التابعية للدولة العلية أو بجعل مصر حرة مضمونة من كافة الدول، لكن الأولى لحفظ نفوذ الإسلام هو التابعية للخلافة المحمدية" [المذكرات - المرجع السابق - صـ١٨٦]. لكن ذلك كان مؤقتاً وغير ملتزم بفكرة الخلافة وإنما هو تكتيك سياسى.

وينشر مصطفى كامل فى الأهرام حواراً جرى بينه وبين شقيق لورد كرومر تحت عنوان "حديث ذو شأن" ويقول "وقد بدأ حضرته بالكلام على خلاف عادة الانكليز فقال: هل أنت مصرى أم عثمانى ؟ فأجبته: مصرى عثمانى، فقال وسمة التعجب بادية عليه وهل تجتمع الجنسيتان فى أحد ؟ فقلت: ليس فى الأمر جنسيتين بل هى فى الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر تابع للدولة العلية والتابع لا يختلف عن المتبوع فى شئ من أحكامه" [الأهرام - ٢٨-١-١٨٩٥]. وعلى أيه حال التقط الخليفة العثمانى الخيط المتمثل فى زعامة مصرية وليدة معادية للانجليز وتؤمل خيراً فى تحالف معه.

ويشير فريد فى مذكراته بزهو بالغ "حضر الفاضل مصطفى كامل الوطنى الغيور من الأستانة يوم الاحد ٥ نوفمبر ١٨٩٦ بعد أن أقام بها نحو أسبوعين، وأحسن العثمانيون لقياه، وأهداه السلطان علبة سجائر من الذهب مرصعة بالألماس وهذا دليل قاطع على إرتياح مولانا الخليفة عن عمله ومساعيه" [المذكرات - المرجع السابق - صـ ٢٧٣]. وهكذا تمضى سياسة التقارب غير المعبر عن صداقة فعلية. تماماً كما كان الطرفان المصرى والعثمانى أيام الثورة العرابية. فالطرفان يقفان معاً ضد الانجليز لكن كل طرف يحاذر من الآخر ويسعى كل منهما لتحقيق مصلحة متناقضة مع أهداف الطرف الآخر. وعندما كان مصطفى فى باريس [يوليو ١٨٩٩] اتصل به سفير تركيا ليبلغه رغبة السلطان فى رؤيته للمرة الثانية فوصل الأستانة وفى ٢٠ أغسطس حيث أنعم عليه السلطان بالنيشان المجيدى الثانى ثم بالأول فإنهالت علية الصحف المأجورة تكيل له التهم" [أحمد رشاد - مصطفى كامل - حياته وكفاحه - مطبعة السعادة - صـ١٥١]. إنها نفس الأدوات العثمانية التى أُستخدمت مع عرابى. ويربط الكثيرون بين هذه الزيارة وبين تمويل عثمانى لإصدار جريدة اللواء. فبعد الزيارة بثلاثة أشهر صدرت اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠" [أحمد رشاد - المرجع السابق - صـ١٥٣].

.. وتماماً كما كان الأمر مع الثورة العرابية ما لبثت الصراعات أن وضحت معالمها. ففريد خاض معركة شديدة ضد الشيخ عبد العزيز جاويش ودعوته للخلافة، وما لبث أن طلب صناعة دبوس يعلقة

أعضاء الحزب الوطنى على صدورهم مكتوب عليه "مصر للمصريين".

وعندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر. شعر فريد بخطر مناورات الخلافة العثمانية فسجل فى مذكراته "هذا دليل جديد يضاف الى غيره مما سبق ذكره على أن العثمانيين يداعبون الحزب الوطنى ليساعدهم على فتح مصر وبعدها ينفذون إرادتهم الاستبدادية فى بلادنا" [المذكرات - ١٤-١٢-١٩١٤]. وفى اليوم التالى يكتب "أننى أخشى أن يكون نصيبنا الشنق لود دخل جمال باشا بجيشه إلى مصر". وفى يناير ١٩١٦ وفيما الحرب العالمية الأولى مشتعلة ولم تتضح فيها الكفة الراجحة تحدث فريد إلى الهر زمرمان وكيل الخارجية الألمانية [حليفة الدولة العثمانية فى الحرب] قائلاً "لا يجوز للترك أن يتدخلوا فى إدارة مصر لجهلهم البلاد وأهلها، بل لجهلهم الإدارة أصلاً كما هو مشاهد فى سوريا وغيرها. ولا نقبل أن نكون تحت إدارتهم لأننا أرقى منهم كثيراً وبلادنا أكثر انتظاماً من قبل دخول الانجليز، وبالاختصار فإن الاتراك يريدون أن يأكلوا مصر. ولكننا لا نقبل أن نؤكل بسهولة فنحن قاومنا الانجليز ونقاوم كل من يريد أكلنا لأننا نسعى للاستقلال وغاية ما نقبله أن نكون مع الأتراك مثل المجر مع النمسا، على شرط المساواة فى الحقوق والاستقلال التام" [عبد الرحمن الرافعى - المرجع السابق - صـ٤٣٣].

.. وتتفرق السبل، مصر تمضى فى طريقها نحو الاستقلال رافضة

أى وصاية أو تدخل باسم الخلافة.. ويفترق السبيلان. حتى تكون ثورة الاستقلال الوطنى فى ١٩١٩. وتسقط دولة الخلافة العثمانية. وكما أتت فى تركيا تسقط فى تركيا.

وإذ تحاول مصر أن تستعيد أنفاسها وتنهض، كانت الخلافة العثمانية تلفظ آخر أنفاسها. فبعد الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى وقبلها بسنوات عدة كانت الإمبراطورية العثمانية قد تآكلت ولم يبق منها فعلياً سوى عدة دول أو دويلات وإمارات عربية. وكانت عموماً تموج بكراهية غامرة ضد الأتراك وتسلطهم ومحاولات التتريك. وحتى هؤلاء الذين تعلقت إبصارهم بالخلافة كفكرة ما لبثوا أن انفضوا عنها كراهية فى الظلم التركى، ووصل الأمر بمن اعتقدوا أن الخلافة كرمز هى طقس اسلامى لابد من الالتزام به من أمثال عزيز المصرى وعبد الرحمن عزام أن دعوا إلى خلافة عربية تنهض بالفكرة وترفض الأتراك وكان ذلك فى بداية القرن الماضى. وهكذا وبشكل فعلى أصبحت الخلافة جثة عاجزة تحت وطأة التسلط والظلم والفساد وكراهية الشعوب لها.. ولم يكن ما فعله أتاتورك سوى مواراه جثة هامدة التراب.

سقطت الخلافة. ونفى الخليفة العثمانى. وبدأ فى التسول بأمل الضغط إسلامياً لإعادته خليفة أو منحه دعماً مالياً ومعنوياً، وينسى الخليفة المخلوع أن المنصب كان بذاته مطمعاً للكثيرين وعلى رأسهم الملك فؤاد.. الذى وصلته رسالة استعطاف واستجداء من عبد المجيد فأهملها. لكننا عثرنا عليها ضمن أرشيفات مهملة. ولأنها وثيقة

نادرة ولم تنشر من قبل وتعبر عن بؤس الخليفة والخلافة فإننا ننشرها كاملة ومعها رسالة ملحقة أرسلها الخليفة المسكين الى سعد زغلول رئيس وزراء مصر آنذاك.

*** الوثيقة الأولى[نسخه اصلية]**

شعار

عبد المجيد عبد العزيز خان

إلى حضرة ملك مصر الملك فؤاد

إنى كما ذكرت فى منشورى الذى نشرته على العالم الاسلامى معترضاً به على قرار إلغاء الخلافة الغير شرعى قد أبعدت عن وطنى الذى أسسه أجدادى العظام وسُفرت الى سويسرا وذلك بقرار مجلس الشعب فى تركيا بالأكثرية الحاضرة وقرار حكومة الجمهورية. أن تحديد إقامتى هنا إلى الآن هو فقط نتيجة لحالة اضطرارية وهى عدم حصولى على واسطة الانتقال الى بلد إسلامية. وحيث أن أجدادنا العظام لم يكونوا يفكرون إلا فى رخاء الدولة وسعادة الأمة فإنهم لم يجدوا لزوماً لان يخصصوا لأحفادهم شيئاً من الثروة والإيراد يتركوه لهم، غير بعض المخلفات التاريخية الثمينة التى فى خزينة السراى وبعض الاراضى والأملاك الموجودة فى جهات مختلفة من ممالكهم الواسعة. وبما أن المخلفات المذكورة قد صادرتها الحكومة قبل سنة ونصف وذلك بناء على إلغاء السلطة فإننا عند نفينا وتغريبنا من وطننا العزيز الذى فتحه أجدادنا ذوو الهمة العالية لم نجد فى يدنا غير المبلغ الجزئى الذى وُزع علينا بصفة مصاريف السفر، وإن أملى فى إبراز معاونة فعلية ولو صغيرة

من جانب ملوك الأسلام وأغنيائه الذين ليس من الصعب عليهم أن يتصوروا أنى فى هذه الحالة المؤسفة سواء كنت أنا أو باقى أعضاء أسرتى الذين تفرقوا فى بلاد الغربة سنتعرض فى وقت قريب جداً لاحتياج ظاهر حتى أمام الأجانب. فأمام هذه الحالة المؤلمة وبقصد التمكن من اجتناب عاقبة أشد إيلاماً فإنى و بصورة رسمية جئت قاصداً ذاتكم الملكية وأسرتكم النجيبة، وبواسطتكم أدعو الحمية الإسلامية وكرم الشعب المصرى الأصيل وحكومتة الشعبية. وإن تركى أقيم مضطراً فى هذا الوسط الاجنبى وذلك إلى أن يجتمع علماؤنا الحقيقيون وذوو الحل والعقد الذين سيعدون أن شاء الله الوسائل لتحكيم الجامعة المقدسة الإسلامية التى آلمها الاعتداء الذى حصل وهو أمر مؤسف جداً من جهة صيانة الشرف الاسلامى فى نظر الأصدقاء والأعزاء ومؤلم جداً لشخصى. فبحرمة ما قامت به أسرتى من كل التضحيات فى الخدمة الإسلامية المشكورة التى نفتخر بأنها قامت بها قرونا عديدة، وبحرمة ما أبرز والدى المغفور له من المحبة الفعلية إلى حكام مصر والى شعبها الكريم بحرمة هذه التذكارات الأصلية والمفاخر التاريخية أرجو أن تتفضلوا بمساعدة من يرغب من أعضاء أسرة عثمان المظلومين ورئيسهم الحالى فى الإقامة ضيفاً فى الديار المصرية إلى أن تزول هذه الأزمة، ومعاونتهم على حالهم وأنى أتمنى ذلك من جانب ذاتكم السنية ومن أسرتكم ومن كرم شعبكم الأصيل وذلك باسم الأخوة الدينية والحقوق القديمة وأدعو الله أن يشملكم بتوفيقاته الربانية (٢٢ رمضان ١٣٤٢).

عبد المجيد عبد العزيز خان

*** الوثيقة الثانية [نسخه اصلية]**

تاج

عبد المجيد عبد العزيز خان

حضرة رئيس نظار مصر سعد زغلول باشا

مرسل لجانبكم السامى صورة أخرى من ندائى الذى خاطبت به متبوعكم الأفخم وأسرته وكرم الشعب المصرى الأصيل ومروءته الإسلامية والذى أبلغت صورة منه حسب الأصول إلى رئاسة مجلس النواب الوطنى المحترم وبما أن شخصكم السامى هو خادم الامانى القومية المضحى، ورمزها الشخصى وعضدها المتين فإنى على يقين يقيناً لاشك فيه أنكم ستتفضلون ببذل كل نفوذكم وسلطتكم لتعضيد هذا النداء وترويجه إرضاء لعواطف المحبة الإسلامية السامية. وإنى أظهر لكم أسمى عواطف التقدير الصميمية. فى ٢٢ رمضان المبارك سنة ١٣٤٢.

عبد المجيد عبد العزيز خان

.. ولكن ولأن مقام الخليفة الذى أسمى نفسه أمير المؤمنين، خاقان البرين والبحرين وحامى حمى الإسلام والمسلمين لم يكن بذاته يمتلك أيه قيمة فعلية لدى الكثيرين ما دام قد تجرد من القوة والنفوذ والسلطان، بما يؤكد أن موضوع الخلافة كان بذاته موضوعاً سياسياً وليس دينياً. فإن أحداً لم يهتم بهذا المسكين الذى أصبح متسولاً وبدأ البعض فى محاولة اقتناص المنصب لنفسه وأولهم كان الملك فؤاد.

وكان إنهاء الخلافة التركية مثاراً لخلافات جسيمة فى مصر. فهناك من صمموا على الدفاع عن مقام الخلافة باعتبارها ركن من أركان الدين، لكنهم ما لبثوا أن حولوا اهتماماتهم بها الى سعى فى خدمة الملك فؤاد الذى تعلق بوهم أن يكون خليفة المسلمين. وتشكلت لجنة لدعوة ممثلى جميع الأمم الإسلامية إلى مؤتمر يعقد فى القاهرة برئاسة شيخ الأزهر للبحث فى من يجب أن تسند إليه الخلافة ومقر وجوده وتحدد شهر شعبان من العام التالى لانعقاده.[المنار - المجلد ٢٥- ١٩ شعبان ١٣٤٢هـ- ٢٥ مارس ١٩٢٤]. والمثير للدهشة أن أكثر المتحمسين لعقد هذا المؤتمر طموحاً نحو إرضاء الملك فؤاد وهم بعض كبار شيوخ الأزهر، كانوا هم أنفسهم من اجتمعوا بعد أربعة أيام فقط من إعلان قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة وأصدروا بياناً أكدوا فيه بطلان ما قام به الكماليون لأن الخليفة قد بويع من المسلمين ولا يمكن خلعه"[محمد حسين - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر - الجزء الأول - صـ٤٧]. أما خصوم فكرة الخلافة فقد قاوموا الدعوة لهذا المؤتمر مستندين الى تراث من الفكر المناهض للخلافة والملتزم بشعار مصر للمصريين. واستعاد هؤلاء كتابات لقاسم أمين تقول "إن الخلافة تقوم على أساس خليفة أو سلطان غير مقيد يحكم موظفين غير مقيدين، وربما يقال أن هذا الخليفة يستمد سلطته من الشعب الذى بايعه، لكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هى سلطة لفظية، أما الحقيقة فهى أن الخليفة هو وحده صاحب الأمر والنهى، والحقيقة

أن من أسباب نكبتنا أننا نسند حياتنا على التقاليد التى لم نعد نفهمها، ونحافظ عليها فقط لأنها أتت من الماضى" [محمد كامل ضاهر - الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى المعاصر - صـ ٢١٠] أما الأستاذ الإمام محمد عبده فقد رفض من حيث المبدأ القول بوجود خليفة يتحدث باسم السماء قائلاً "إن السيادة قسمان: سيادة عليا يختص بها الله تعالى، وسيادة أقل درجة يختص بها الشعب وعليه ممارستها، ومن هذه السيادة تكتسب الأمة شرعية دورها كمصدر للسلطة امام الحاكم فيستمد سلطته من الشعب ثم يقول "ومن الضلال القول بتوحيد الإسلام للسلطتين المدنية والدينية فهذه الفكرة خطأ محض ودخيله على الإسلام ومن الخطأ القول أن السلطان هو مقرر الدين وواضع أحكامه ومنفذها، فليس من الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية او المؤسسة الدينية بوجه من الوجوه، ولم يعرف المسلمون فى عصر من العصور تلك السلطة الدينية" [الشيخ محمد عبده - الأعمال الكاملة - الجزء الثانى - صـ١٢٥ وما بعدها]. وفى ظل هذا التراث من الاختلاف احتشد السلفيون وعلى رأسهم الشيخ رشيد رضا تلميذ محمد عبده الذى تخلى عن تعاليم أستاذه مع شيوخ الأزهر من أنصار الملك فؤاد. وكان هناك الشيخ عبد الباقى سرور ومحب الدين الخطيب اللذين أصدرا مجلة الفتح ثم أسسا فيما بعد جمعية الشبان المسلمين فى غرة جماد الآخر ١٣٤٦هـ [٢٥نوفمبر١٩٢٧] وأنشأوا لها فروعاً فى يافا وحيفا والقدس والعراق ووصل عدد

فروعها فى ١٩٣٠ الى عشرين فرعاً" [لمزيد من التفاصيل حول الخلافات الفقهية والشرعية فى موضوع الخلافة راجع: د. رفعت السعيد - المتأسلمون ماذا فعلوا بالإسلام وبنا] وقد بدأت الخلافات وتصاعدت فور إسقاط الخلافة. وعندما حضر الى القاهرة شيخ الإسلام [التركى] مصطفى صبرى توقادى هارباً من الكماليين أستقبله المسلمون أسوأ استقبال متهمين إياه بالعمالة للانجليز لأنه أصدر فتوى بتكفير كمال أتاتورك، وكانت الصحف فى أغلبها تكيل الثناء للكماليين" [السيد يوسف - الإخوان المسلمون وجذور العنف والإرهاب فى مصر- صـ٤٥] وإنبرى الشيخ محمد شاكر وكيل جامع الأزهر ليشن هجوماً عاصفاً على الخليفة المخلوع الذى لجأ إلى الانجليز معلناً انه بصفته خليفة للمسلمين يطلب الحماية البريطانية وأضاف أنه "لا يستحى فى ذلك من تاريخ أجداده، ولا من الأمم الإسلامية التى يزعم انه يتكلم باسمها كخليفة للرسول الأعظم ولا من التاج الذى دنسه بالالتجاء الى الحماية الأجنبية فسحقاً لهذا الذى دنس شرف الإسلام" ثم "أفلا يجدر بالمسلمين أن يفكروا فى قلب هذا النظام العتيق رأساً على عقب حتى ينقذوا الإسلام والمسلمين من هذه الكوارث وحتى يضعوا حداً لتصرفات البلاط الشاهانى والباب العالى فى الشئون الإسلامية العامة" ثم قارن الشيخ شاكر بين "الخسائر التى إبتلى بها المسلمون على يد الخلفاء العثمانيين فخسروا كل عواصم الإسلام والجزائر ومراكش وطرابلس وعواصم أخرى لا تعد ولا تحصى فى مشارق الأرض ومغاربها وبين

الانتصارات التى حققها أتاتورك فى تحرير الأستانة مقدماً القدوة للمسلمين" [الأهرام ٥-١٢-١٩٢٢ - مقال لفضيلة الشيخ محمد شاكر بعنوان "ما شأن الخلافة بعد التغيير"] ويرد عليه الشيخ التركى توقادى بكتاب عاصف أثار مزيداً من الهجوم عليه وعلى الخليفة الذى باع كل شئ للانجليز. [شيخ الإسلام مصطفى صبرى توقادى - النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة] ثم نشأ تيار ثالث ألتمس الحل فى الأخذ بالفكره الكمالية التى نادت بما أسمته "الخلافة الروحية" وتقوم على أساس نزع أيه سلطة مدنية أو تنفيذية من هذا الذى يسميه البعض خليفة، هذا إذا أصروا على الاستمرار فى التمسك بفكرة الخلافة. وينشر الأهرام بياناً للسيد أحمد السنوسى بعنوان "بيان خطير الشأن للسيد السنوسى الأكبر يقول فيه "بتأييد قصر الخلافة على الجانب الروحى فقط" [الأهرام ٢٨-٩-١٩٢٣].

وعبر صراعات ممتدة تكونت اللجنة المشكلة للدعوة لعقد مؤتمر الخلافة بالقاهرة. وما أن أعلن فؤاد رغبته فى تولى الخلافة حتى تراجع الكثيرون ومنهم الشيخ محمد شاكر نفسه الذى نشر مقالاً فى المقطم معتذراً عن سابق مدحه للكماليين معرباً عن خيبة أمله فيهم" وتعالى صوت مصطفى صادق الرافعى مهاجماً الكماليين واصفاً كمال أتاتورك بأنه ذبابة وبعوضه وقملة ويستحق لعنة جميع المسلمين. [مصطفى صادق الرافعى - وحى القلب - صـ١٢].

وفيما كان الاستعداد يتعثر لعقد مؤتمر الخلافة.. كانت المنافسة

على أشدها. وعندما أعلن علماء ومشايخ فلسطين مبايعة الأمير حسين بن على خليفة، أسرعت الأهرام لتؤكد وبوضوح "رأى جلالة الملك ورأى الحكومة ورأى العلماء أن يكون ملك مصر خليفة" [الاهرام - ٢١ - مارس - ١٩٢١] ويؤكد أحمد شفيق باشا "ورغم الحرص على الكتمان فقد ساهم القصر الملكى فى مصر فى نشاط لجنة المؤتمر الاسلامى الذى دعى لاختيار الخليفة" [أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية - الحولية الأولى- صـ١٣٣] وأندفع علماء الأزهر فى ذات الطريق. وأصدرت لجنة المؤتمر نشرة باسم "المؤتمر الاسلامى" صدر عددها الأول فى ربيع الأول ١٣٤٣هـ [أكتوبر ١٩٢٤] وكانت الافتتاحية بقلم رشيد رضا وأكد فيها "أن نصب الامام واجب على الملة فى هذا الزمان كغيره من الأزمنة" [المؤتمر - العدد الأول - ربيع الأول ١٣٤٣هـ]. ويمضى رشيد رضا وبلا حدود مؤكداً "إن جميع المسلمين آثمون بعدم نصب إمام تجتمع كلمتهم عليه بقدر طاقتها. ذلك أن الجماعة التى أمرنا بإتباعها لا تسمى جماعة المسلمين إلا إذا كان لها إمام بايعته باختيارها، وإمام المسلمين هو رئيس حكومتهم السياسية" [المنار - ابريل ١٩٢٥]. وعلى أية حال تعثر المؤتمر، ثم تأجل انعقاده، ثم عقد فى ١٣ مايو ١٩٢٦ هزيلاً فقد حضره ٣٤ شخصاً وبعضهم حضر بصفة شخصية" [المقطم - والسياسة - ١٤ مايو ١٩٢٦]. وكانت نكسة كبيرة لطموحات الملك فؤاد وأصدر المؤتمر بياناً قال فيه "إن الخلافة الشرعية المستجمعة لشروطها المقررة فى كتب الشريعة الغراء

والمتمثلة فى الدفاع عن حوزة الدين فى جميع بلاد المسلمين وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء فيها لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحال التى عليها المسلمون الآن" . والحقيقة أن الإطاحة بالخلافة التركية قد خلقت "تداعيات ذات طبيعة زلزالية . فكثير من علماء المسلمين أعلنوا صيحاتهم استنكاراً ، والآخرون الليبراليون استحسنوا ، والغرب أعتبرها قفزة هائلة" .

[316. R Gibb - wither islam - (1932) - p. A. H]

وتصدر المقتطف عدداً على غلافه صورة أتاتورك وتحتها "أكبر زعماء العصر" [المقتطف – ابريل ١٩٢٦] .. وفى خضم المعركة وعملية الإعداد للمؤتمر ، فجر الشيخ على عبد الرازق قنبلته المدوية "الإسلام وأصول الحكم" . والشيخ على عالم ليبرالى عضو بهيئة كبار العلماء وفوق ذلك درس الأدب العربى والفلسفة فى جامعة فؤاد [القاهرة] ثم درس فى أكسفورد علم الاقتصاد . وجاء كتابه حاسماً "فالحكم والحكومة والقضاء والإدارة ومراكز الدولة هى جميعاً خطط دنيوية صرفة لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب العقل وقواعد السياسة" [على عبد الرازق – الإسلام وأصول الحكم – صـ١٠٢] و "كل ما جرى على لسان الرسول من ذكر للإمامة والخلافة والبيعة .. إلخ لا يدل على شئ أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكم قيصر" [صـ١٦] . وأيضاً الصراع على الخلافة كان وظل

دوماً صراعاً سياسياً وهو تعبير عن شهوة الحكم التى جعلت الخلافة لا تقوم إلا على القهر والاستبداد والظلم. وإذا كان فى الحياة الدنيا شئ يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم ويسهل عليه العدوان والبغى فذلك هو مقام الخلافة" [صـ٢٨] ثم " إن شعائر الله تعالى ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذى يسميه الفقهاء خلافة، وأولئك الذين يسميهم الناس خلفاء فليس من حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد" [صـ٣٦] ويفرق الشيخ بين ولاية الرسول وولاية الحاكم "فولاية المرسل إلى قومه ولاية روحية منشؤها أيمان القلب وخضوعه خضوعاً صادقاً تاماً يتبعه خضوع الجسم، أما ولاية الحاكم فهى ولاية مادية تعتمد على إخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلب اتصال" [٦٩] ثم يوجه الشيخ سؤالاً حاسماً هو "هل كان الرسول ملكاً أم رسولاً فقط؟ ويجيب "إن القرآن صريح فى أن محمداً (صلعم) لم يكن إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل، ثم أن القرآن بعد ذلك صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شئ غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس بما جاءهم به، ولا يحملهم عليه" ثم يمضى مشيراً إلى أن الرسول لم يعين من بعده خليفة، والى أن كل الذين تزعموا المسلمين من بعده ومن بينهم الخلفاء الراشدون كانت زعامتهم مدنية أو سياسية وليست دينية. وكيف أن أبا بكر هو الذى أطلق على نفسه لقب

خليفة وأن بيعته كانت ثمرة إتفاق سياسى، ومن ثم فإن حكمه لا علاقة له بفكرة الدولة الدينية.

والحقيقة أن معركة الخلافة فى هذه الفترة الحاسمة بالذات قد أثمرت أربعة كتب تستحق جميعاً أن تُقرأ وأن تدرس دراسة متعمقة ليس فقط فى إطارها الفكرى وإنما فى الإطار المجتمعى الذى نبتت فيه. ومن هذه الكتب الأربعة كتابان متحمسان أشد الحماس لفكرة الخلافة أولهما لمحمد رشيد رضا "الخلافة أو الإمامة العظمى" [١٩٢٣] والثانى لمصطفى صبرى توقادى "النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة" [١٩٢٤] واثنان معارضان لها هما "الخلافة وسلطة الأمة" وقد صدر باللغة التركية لمؤلف مجهول وترجمة الى العربية عبد الغنى بك سنى [١٩٢٣] و "الإسلام وأصول الحكم" لشيخنا على عبد الرازق [١٩٢٥]. لكن أخطر هذه الكتب وأكثرها إثارة للجدل منذ صدوره وحتى الآن هو كتاب الشيخ على عبد الرازق. والحقيقة أن متابعة صحف ومطبوعات ووثائق فترة ما بعد صدور هذا الكتاب توضح لنا أنه بما أحدث من زلازل ربما كان الأكثر خطراً من أى كتاب آخر صدر حول هذا الموضوع فى القرن العشرين. ذلك أن مؤلفه جعل منه ليس مجرد أداة فقهية راقية وإنما معولاً سياسياً أسقط به فكرة الخلافة من جذورها وفى الوقت الشديد الحساسية أى قبيل إنعقاد مؤتمر الخلافة الذى دعا إليه شيوخ أزهريون إرضاء للملك فؤاد.

وتستحق هذه التداعيات أن نتعلق ببعض منها لنعلق عليها.